وسلاحه البكاء

رواية

كمال السيد

دار النبلاء

رواية

وسلاحه البكاء

أو

ابكِ يا ولدي الحبيب

كمال السيد

دار النبلاء





1

لاحت من بعيد «ثنيات الوداع»، والقافلة المحمّلة بكنوز كسرىٰ تشقّ طريقها بجلال تحرسها خيول ودروع.

كانت الشمس قد بزغت كأنّها تستقبل العائدين؛ أو لترىٰ فتاة حملتها الأقدار من أرض النار، كـانت تمـعن في الفـرار ولكـن دون جدوىٰ .

اقترب صحابي أراد أن يحادثها... أن يقول لها كان سلمان يعيش في المدينة وكان رجلاً من أهل البيت، كان يعيش في أرضكم ولكنّه جاء يبحث عن النور ففرّ من النار.

تمتم أسفاً وودّ لو كان سلمان حاضراً، تمنّىٰ لو أنه قد تعلّم منه لغة أهل تلك الديار.

هبّت نسائم طيبة، فتذكّر حادثة قديمة لن يـنساها يـوم وصـل رسول السماء أرض طيبة فصدحت الفتيات يغنين للبدر الذي أشرق في سماء المدينة.

حانت منه التفاتة فألفىٰ بنت كسرىٰ حزينة لكأنّ وجهها المضيء

تغمره غيوم وغيوم.

تساءل في نفسه؛ ترىٰ ماذا سيكون مصيرها انّها سبيّة علىٰ كلّ حال. هذا هو منطق الحرب.

كان الموكب يقترب من المدينة. تمايلت سعفات النخيل، وهبّت نسائم طريّة مشبعة برائحة الخضار.

تذكّرت بنت آخر ملوك ساسان قصورها المـنيفة، وتعجبت أن تكون هذه المدينة عاصمة الدولة التي لا تـقهر! كـيف هـزم هـؤلاء الحفاة العراة جيوش كسرىٰ حتىٰ لم يـتركوا لـ «يـزدجرد الثـالث» مكاناً في خراسان ولا في نيسابور ولا سرخس ولا طوس، وها هي الأنباء تطير في الآفاق عن عبورهم «باب الأبواب» في بلاد الخزر، تأوّهت بحزن:

ـ آه بيروز باد هرمز .

المسجد يكتظ بالناس ، وقد أشرفت عذارىٰ المدينة يتطلعن الىٰ ابنة الملوك، إلى جمال فارسي يختطف القلوب والأبصار .

كانت الفتاة تدرك ما سيحلّ بها بعد قليل سوف تكون جارية في بيت طيني من بيوت المدينة. تجمّعت الدموع في عينيها كغيوم ممطرة، راحت تتصفح الوجوه المحدِّقة بها.. التقت عيناها وجـهاً أفـتر عـن ابتسامة أراد أن يبدّد عنها خوف غامض فقال:

ـ چه نام دارى أي كنيزك؟

دهشت لهذا الرجل الذي يتحدّث بلغتها ..

أجابت باستحياء :

ـ شاه زنان .

أراد الرجل الذي يشبه الأسد أن يمنحها اسماً جديداً فقال :

ـ شهر بانو .

ابتسمت الفتاة وشكرت في أعماقها الرجل لهذه الهدية .

ما أجمله من لقب ... سيّدة المدينة .

سأل الرجل وقد أراد أن يكتشف ما تعلّمته من الزمان :

ـ هل حفظت عن أبيك شيئاً ؟

أجابت بلوعة :

ـ كان يردّد قبل مصرعه : إذا غلب الله علىٰ أمر ذلّت المطامع دونه، واذا انقضت المدّة كان الموت في الحيلة .

ابتسم الرجل الذي تنفجر الحكمة من جوانبه :

ـ ما أحسن ما قال أبوك، تذلّ الأُمور للمقادير حتىٰ يكون الحتف في التدبير .

ساد الصمت ووقفت الفتاة تنتظر النهاية مستسلمة، هاهي الأقدار ترسم الطريق من قمم الجبال الشاهقة الىٰ الهاوية! من المجد والملك الى السبي والعبودية. كانت علىٰ وشك أن تعرض في الأسواق بعد أن أمر الخليفة بذلك .

وقبل أن تخطو باتجاه النهاية ألقت نظرة رجاء على الرجل لعلّه يشتريها.

هتف الرجل معترضاً، رغم غضب الخليفة :

ـ لا يجوز بيع بنات الملوك .

تذكّر الصحابة كلمات قالها النبيّ يوم وقعت سفانة ابنة حاتم في الأسر : ارحموا عزيز قومٍ ذلّ.

لقد نسيها الجميع وها هو أخو النبي يذكّرهم بعد تطاول الأيام.

ـ وما هو الحلّ اذن ؟! تساءل الخليفة حنقاً .

ـ أعرض عليها أن تختار رجلاً من المسلمين يتزوّجها ويحسب مهرها من عطائه.

تصاعدت صيحات الاستحسان من زوايا المسجد كانوا بشوق الى ملكة فارس، ترى مَنْ ستختار، انّها علىٰ كلّ حال تمثل اُمّة كانت تحكم نصف العالم ذات يوم.

وراحت ابنة كسرىٰ تبحث عن رجل تلوذ به، تـتأمّل الوجـوه تبحث عن الإنسان.. تبحث عمّن يهبها رحمة الأب ودفء الأُم.

واستقرت عيناها علىٰ شابّ أقنىٰ الأنـف كأن عـينيه نـافذتان تطلّان علىٰ عوالم تزخر بالنور والصفاء والحرية؛ فأشارت اليه .

هتف بعضهم إعجاباً :

ـ ما أحسن ما اختارت، وهل هناك من هو أشرف مـن سـبط محمد وابن سيّد العرب.

قال سيّد العرب لابنه وقد تذكّر نبوءةً سمِعها من رسول السماء :

ـ ليلدن لك منها صبي هو خير أهل الأرض .

2

كانت ترنو الىٰ وليدها بعينين مجهدتين، أضـنتها آلام المخـاض، هاهو يغفو الى جانبها كقمر صغير، كوردة نسرين تتفتح للربيع .

كانت ترنو اليه بحزن. نداء ما يضجّ في أعـماقها كأنّـه يـدعوها للرحيل . الرحيل الىٰ عوالم بعيدة .

فتح الصبي عينيه كأنّه يبحث عن أُمّه؛ هزّ المهد بقدمه الصغيرة .

تجـمّع خوف بريء في عينيه، وطافت وجـهه المسـتدير غـيمة حزينة وانبعث صراخ طفولي فيه نشيج الميازيب في مواسم المطر.

كان الصوت يخترق أُذنيها... يـدوّي في أعـماقها يـفجّر يـنبوع الأُمومة.. ولكن الجسد الخائر لم يـقو عـلىٰ الحـراك، وقـد أوشكت الروح على الرحيل والصبي يصرخ ويصرخ كأنّـه يـتشبّث بـروح وهبته الروح .

تمتمت بأسىٰ :

ـ ابكِ يا ولدي الحبيب .

ثم أغمضت عينيها الواهنتين لتغفو بسلام ؛ فيما ظلّ الصبي يبكي .

كانت السماء تسحّ مطراً ناعماً، وكأن الغيوم تبكي بصمت، وامتزج بكاء الصغير مع نشيج الميازيب. لكأن الأقدار رسمت لهذا الصبي طريقاً منقوعاً بالدموع مضمخاً بحزن سماويّ ورثه أجداده عن آدم يوم قُتِلَ هابيل.

وتمرّ السنون، والتاريخ يشعل الحوادث المدمّاة هنا وهناك.

تدفقت دماء جدّه في المحراب قانية تلوّن أُفق التاريخ، حتى اذا مضت خمسون سنة على الهجرة أشعل التاريخ حادثة في منزل عمّه سبط النبي وريحانته.

كان الحسن يتلوّىٰ من الألم.. آلام رهيبة كخناجر تغوص في قلبه تمزّق كبده.

وقف علي إلىٰ جانب أبيه يراقب عمّه بذهول.

هتف الحسين بمرارة:

ـ ألا تخبرني بمن دسّ اليك السمّ؟

تمتم الحسن وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ لقد سقيت السمّ مراراً فلم يفعل مثل هذه المرّة.

شعر بأن ناراً مجنونة تشعل الحرائق في أعماقه، ماذا يقول لأخيه؟ انّه يعرف من دسّ السمّ، هناك في بلاد الشام رجل من طلقاء جدّه يخلط السم بالعسل.. سلاح جديد يستخدمه منذ سنين بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

رجل تحوطه سيوف وقلاع؛ وما «جعدة» إلّا ضحية مرض

وبيل، عقدة ورّثها قابيل ابناءه.

وأغمض الحسن عينيه ليفتحهما في عالم آخر... عالم مليء بالمسرّات الخالدة.

ومضىٰ التاريخ يشعل الحوادث، مات «ابن كلدة» طبيب العرب وكان قد أخذ الطبّ عن أهل فارس، وماتت عفراء وكانت من أهل البادية يتغنون بقصّة حبّها العذري لابن حزام؛ وماتت ميمونة وكانت امرأة وهبت نفسها للنبي.

مضىٰ التاريخ يشعل الحوادث، ارتفعت في سماء «الفسطاط» بمصر أوّل منارة في الاسلام والجيوش الاسلامية تدقّ بعنف أبواب القسطنطينية واستشهد أبو أيوب فدفن تحت أسوارها.

ومات سعد آخر المهاجرين وترك بقصره «العقيق» ذهباً وفضة وابناً سيسل سيفه لمحو التاريخ الهجري.

3

دار الزمن دورته وأطلّ عام ستين، عام فيه يضام الناس وفيه يعصرون، مات معاوية.. وقد حوّل المنبر الىٰ عرش فأورثه ليزيد، كان يزيد في«حوران» يقضي وقته في ملاعبة قرده، مستمتعاً بكلاب الصيد التي ملأت الجوّ نباحاً كشرطة أغضبها فرار ثائر كانت قد ألقت القبض عليه .

دخل قصره وقد بدت عيناه جمرتين متوقدتين. ألقىٰ نفسه على السرير وأشار إلى الحاجب إشارة عرف مغزاها على الفور.

دخلت جارية رومية تحمل ابريقاً فيه خمرة معتقة، برقت عيناه شهوة وكادت نظراته تفترس مفاتنها.

كان الحاجب يصغي من وراء الأبواب الى ضحكات خليعة .

غرقت «حران» في بركة الظلام، توثبت شياطين الجنّ والانس وتحفزت النمور المختبئة، حطّمت قضبان الصدور، وراحت تعربد .

يزيد يتقلّب في فراش نسجته ديدان القز، والىٰ جنبه تمدّد «قبيس» فاغراً بوزه ببلاهة.

وفي عالم الأشباح رأى أنهاراً من دم تتدفق ما بين «الشـامات» وبين «الحيرة» ورأى جماجم وضحايا؛ اجساداً بلا رؤوس ورؤوساً بلا أجساد، ورأى نفسه يخوض أمواج الدم، يـغرق في بـرك حمـراء حمراء.

هبّ من نومه مذعوراً، وقد توقدت عيناه فبدت كجمرتين أو كوّتين مفتوحتين علىٰ جحيم مستعرة.

فجأة دخل أحدهم يحمل معه كتاباً فأوجس يزيد خيفة كانت سحنة الرجل بلا لون؛ فقد حار هل يظهر حـزنه بمـوت مـعاوية أم يتظاهر بفرح من أجل يزيد خليفة للمسلمين جديد.

رقص النمر المتوثب في الأعماق.. وجد نفسه طليقاً حرّاً. ها هي الدنيا تركع عند قدميه، والرجال تحني هـاماتها له، سـيكون الآمـر الناهي من شواطئ بحر الخزر الى عدن.

فجأة قفز اسم الحسين الىٰ الذاكرة. هتف متوعداً:

ـ هذا الشجىٰ الذي يعترض حلقي.

أصدر يزيد أول أوامر الخلافة:

ـ الى دمشق.

4

كانت أزّقة المدينة غارقة في الليل، وبدت النجوم كقلوب واهنة تنبض من بعيد، وقد جنح القمر المثلوم للمغيب فبدا كوجه مكدود أرهقه السهر.

كان رجل يمضي قدماً يشقّ طريقه في الظلام، وفي رأسه فكـرة واحدة؛ ان يبلّغ الحسين بدعوة «الوليد» أمير «المدينة» وحـاكـمها المطاع.

أفاق علي علىٰ صوت خبط للباب وأدرك انّها قـبضة شرطـي جاء بأمر ما.

قال الحسين وهو ينظر إلى النجوم البعيدة :

ـ رأيت في عالم الأطياف منبر معاوية منكوساً وقد شبّت النـار في قصره... وما أظنّه إلا هالكاً، فجاءوا يأخذون البيعة ليزيد.

أمسك سبط محمّد قضيباً لرسول الله، فقال رجل هاشمي :

ـ قد يغتالونك، فالظلام يخفي سيوفاً وخناجر.

أجاب ابن محمّد :

ـ لا تخشَ شيئاً. أنتم ثلاثون رجل. تأهبوا عند الباب، فاذا سمعتم صوتي قد علا، فاقتحموا.

جلس الحسين قبالة الوليد، وكان ابن الزرقاء ينظر بحقد ولؤم.. تمتم الوليد وكأنّه يلوك الكلمات بصعوبة :

ـ كان معاوية سور العرب.. قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد، إلا انّه قد مات فخلّف يزيد من بعده وهو يريدك أن تبايع .

أجاب الحسين :

ـ مثلي لا يبايع سرّاً .. فاذا دعوت الناس غداً دعوتني معهم.

أطرق الوليد وقال :

ـ صدقت أبا عبدالله انصرف الى منزلك .

انبرىٰ مروان بخبث :

ـ احبسه أيّها الأمير حتىٰ يبايع أو تضرب عنقه .

هتف الحسين بغضب :

ـ ياابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو ؟

وأردف وهو يخاطب «الوليد» معلناً صرخة مكبوتة منذ عشرين سنة :

ـ أيّها الأمير: إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا، يختم ويزيد شارب للخمر قاتل للنفس المحرّمة، ومثلي لا يبايع مثله.

حاول الوليد أن يتفادىٰ العاصفة بمثلها، فالتمعت خناجر في الظلام واقتحم رجال دار الامارة، ولاذ ابن الزرقاء مرعوباً خلف أميره.

غادرت العاصفة مجلس الأمير.. تركته خاوياً علىٰ عروشه، وأطلّ «مروان» كجرذ يخرج رأسه بحذر:

ـ عصيتني ولن تحصل علىٰ مثل هذه الفرصة.

ـ وبخ غيري يا مروان. أتريدني أن اقتل سبط محمد ؟!

ـ إذن لن يبايع حتىٰ تتساقط القتلىٰ.

هزّ الوليد رأسه دون أن ينبس ببنت شفة. ربما كان يفكر بالأفق المضمخ بلون الدماء، انّه يعرف يزيد.. ذلك النزق المتهور. أو لعلّه كان يعقد مقارنة بين مروان وأُمّه الزرقاء، وكان بيتها تخفق فوقه الرايات حيث يعبر الرجال مستمتعين. وبيت الحسين حيث منزل فاطمة مختلف الملائكة وأثر جبريل. يالسخرية القدر!

وعندما أوىٰ الوليد الىٰ فراشه همست زوجته بمرارة:

ـ كيف تسبّه ؟!

ـ هو بدأني بالسبّ أوّل مرّة.

ـ أتسبّه وتسبّ أباه إن سبّك.

أغمض عينيه المحتقنتين وتمتم بندم:

ـ لن أفعل ذلك أبداً.

5

هجعت العيون، وأوت الكائنات إلى مضاجعها فالليل أعشاش دافئة، ومنازل هادئة، وعالم تطير فيه الأرواح تحلّق بـعيداً في دنـيا شفّافة، تتسلل من ثيابها السفلىٰ، تخلع أهابها الجسـدي لتـحلّق في عوالم الذرّ؛ ولو أصخيت السمع تلك الليلة لسـمعت خـطىٰ هـادئة تتخذ سمتها نحو قبر يضمّ رسول السماء إلى الأرض، ولو دققت النظر لرأيت رجلاً أقنىٰ الأنف أشمّه في عينيه تتألّق النجوم أنفاسه كأنفاس الفجر في لحظات الفلق.

كان السبط يشقّ طريقه في أزقّة المدينة الغافية، فهي لا تصحو علىٰ صوت خطاه، انها لن تستيقظ إلّا علىٰ سـنابك خـيل مجـنونة، هاهو يتخذ سبيله نحو جدّه ينوء بحمل أمـانة أبت السماوات حمـلها والأرض.

أدرك علي ما يموج في أعماق أبيه من هموم، منذ زمن وهو يصغي إلى استغاثات تأتي من بعيد.. من أرض السواد، من مـدينة كـانت ذات يوم عاصمة جدّه، ها هي اليوم تسـتيقظ.. تـتأوّه مـن سـياط

الجلّادين، تبحث عن رجل منحها المجد.

كان علي في ركن من حجرة طينية متوجه بكليته صـوب أوّل بيت وضع للناس، قلب يخفق كما تخفق النجوم بضوئها الأزرق.

تنساب الكلمات من بين شفتيه كنهرٍ هـادئ تـترقرق في سمـع الكون، لحظات يلتحم فيها الإنسان بالعالم الأكبر في لحظة اكتشاف كبرىٰ حيث تنحسر الأشياء عن ظاهرها الخـادع، تـبرز الحـقيقة ناصعة أن لا شيء سوىٰ الله .. الله وحده. الكلمات الإنسانية تتدافع كأمواج متلاحقة باتجاه عوالم لا نهائية.. وحده صوت الإنسان يعبّر عن الحقيقة في صمت الليل :

ـ اللّهم يا ملاذ اللائذين... ويا مـعاذ العـائذين ... ويـا عـاصم البائسين ... ويا مجيب المضطرين ... ويا جابر المنكسرين... ويا مأوىٰ المنقطعين ويا ناصر المستضعفين... ويا مجير الخائفين... ويـا مـغيث المكروبين ان لم أعذ بعزّتك فبمن أعـوذ، وإن لم ألذ بـقدرتك فـبمن ألوذ؟

ما أجمل أن يلتحم الانسـان بمسـيرة الكـون .. ومـا أسمـىٰ أن يكتشف طريقه إلى الله... وما ألذّ لحظات الحبّ عندما تعرف النفس بارئها فتحلّق بين النجوم وتصطف مع الملائكة تسبّح بحـمد ربّهـا.. فاذا الكون محراب عبادة والمجرّات محطّات رحيل .

الرواحل تتخذ طريقها صـوب مكّـة وصـوت له نـفحة السماء يخترق آذان الليل :

ـ فخرج منها خائفاً يترقّب قال ربِّ نجني من القوم الظالمين.
الصحراء مدّ البصر والطريق الذي رسمته القوافل منذ عشرات السنين يتألّق في ضوء القمر كأنّه يشير إلى مكّة مهوىٰ الأفئدة،
عاد الصوت الملائكي يعيد إلى الأذهـان قـصّة الشريـد الذي اخترق صحراء سيناء وحيداً:
ـ ولمّا توجه تلقاء مدين قال عسىٰ ربّي أن يهديني سواء السبيل.
ـ إلى أين يابن محمد؟
ـ إلىٰ مكّة.
ـ ألم يهاجر جدّك إلىٰ يثرب بحثاً عن وطن.. عن أرض يعبد فيها الله وحده؟
ـ أجل ويثرب في قبضة الطلقاء.. في أيدي أعداء الأمس.
ـ كيف عبروا الخندق..
ـ لقد رُدم الخندق في «السقيفة»... بعد أن أغمض النبي عينيه.

6

يا مكّة يا مدينة مترعة بالحزن، لم تطل فرحتك سوىٰ عدد سنين يوم تهاوت الأصنام أنقاضاً عند جدران البيت العتيق، جاءت أصنام أُخرىٰ.. أصنام من طين.. من صلصال من حمأ مسنون.

وها هو حفيد محمّد جاء ليحطّم الأوثان الآدمية... ولكن كيف ويزيد عجل له خوار.. وقد عكفت الأُمّة عليه فلا صوت ولا رأس يرتفع .. ليقول : لا ..

لماذا يدور الحسين في شوارع المدينة.. يطوف حول الكعبة العظيمة.. يدور حول البيت .

لماذا يسعىٰ بين الصفا والمروة يبحث عن نبع ماء مفقود، فمكة عادت من جديد وادٍ غير ذي زرع ...

لمَ يبكي عند «خديجة» فالعام عام حزن وقد غاب أبو طالب وأضحىٰ محمّد وحيداً يبحث عن أنصاره ليهاجر .

وجاء رجل من أقصىٰ المدينة يسعىٰ :

ـ يا حسين عجّل بالخروج فابن العاص قادم ومعه أمر

باغتيالك.

ـ لا محيص عن يوم خطّ بالقلم ... رضا الله رضانا أهل البيت ... ألا من كان موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معي، فانّي راحل.

ـ إلى أين يا أبا عبدالله ؟

ـ إلىٰ صحراء بين النواويس وكربلاء.

قال رجل مشفق :

ـ امكث في مكّة فأنت سيّد الحجاز.

ـ لا أُريد أن تستحل حرمة البيت بقتلي ؟

ـ وهل يجسرون علىٰ قتلك.

ـ أجل ليعتدن عليّ كما اعتدت اليهود في السبت.

وقال أخوه من أبيه :

ـ كيف تثق بأهل الكوفة وقد غدرت بأبيك وأخيك ؟

ـ أخشىٰ أن يغتالني يزيد في الحرم فتستباح حرمة البيت.

وعندما استوىٰ الحسين علىٰ ناقته، قال أخوه وقد أخذ بزمامها :

ـ لا تأخذ النسوة معك إذن.

قال الحسين وهو ينظر إلى الأُفق المضمخ بحمرة الشفق :

ـ شاء الله أن يراهنّ سبايا.

ثمانية أيام مضين من شهر ذي الحجة، غادرت قافلة عجيبة ديار مكّة... كانت تسير علىٰ هون وبدت الجمال كسفن تبحر في صحراء متموّجة تريد أن تحدّد للتاريخ وجهة جديدة.

النجوم تتألّق في سماء بدت كعباءة عربية غارقة في الكحل، أشرق هلال المحرّم فبدا في غمرة الظلام وامتداد الرمال ابتسامة مكلوم، أو زورق يودّع بحيرة رائقة.

سرٌّ ما شدّ القافلة إلىٰ هذه البقعة من دنيا الله، لكأنما تسمّرت حوافر الخيل وبركت النياق كسفن ألقت مراسيها في مرفأ مهجور.

شعر عليّ بالاعياء يسري في جسده حتىٰ سلبه القدرة علىٰ النهوض، ولكنه جرجر نفسه بعناء إلىٰ خيمة جلس فيها الحسين يرسم لأصحابه طريقاً عجيباً.

تمتم الحسين آسفاً :

ـ الناس عبيد الدنيا، والدين لعق علىٰ ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم.

وسكت هنيهة وأردف :

ـ قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون ... وان الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعىٰ الوبيل.. ألا ترون إلىٰ الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهىٰ عنه. ليرغب المؤمن في لقاء الله .. فإنّي لا أرىٰ الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما .

هتف زهير وكان قد التقىٰ الحسين علىٰ قدر :

ـ لو كانت الدنيا لنا باقية وكنّا خالدين فيها لاخترنا الموت معك.

قال برير وكان من قرّاء الكوفة :

ـ انّها نعمة يابن رسول الله أن نقاتل معك وأن تُمـزّق أجسـادنا ليكون جدّك شفيعنا يوم القيامة .

وهتف ابن هلال بحماس من اكتشف ينابيع الخلد :

ـ سر بنا راشداً شرقاً شئت أو غرباً .. انّا نحب لقـاء ربّـنا عـلىٰ نيّاتنا وبصيرة من أمرنا.. نوالي من والاك ونعادي من عاداك .

انبرىٰ الرجال لدقّ أوتاد الخيام كأنّهم يحـدّدون مـعالم مـدينة ستولد فيما بعد .

ازدحمت في السماء سحب كأكوام من الرماد تتراكم بعضها فوق بعض، وبدا الجوّ مشحوناً بـالغضب؛ واخـتلطت أصـوات الرجـال برغاء الجمال وصهيل الخيل وقعقعة الأسلحة .

انتشر أربعة آلاف من الذين لا ايمان لهـم عـلىٰ طـول شـاطئ الفرات وبدت الرماح بانصالها خناجر في خاصرة النهر حيث راحت أمواجه تتدافع باتجاه الجنوب فراراً من نفوس مكتوب عليها الشحّ ولو بقطرة ماء .

مرّت سبعة أيام من المحرّم، والحصار يشتدّ. كان «ابن سعد» يمني نفسه باستسلام القافلة، فالماء يعني الحياة، ومنعه يعني الموت وهـل هناك من يختار الموت على الحياة؟

ـ ولكن فيها أطفالاً .

ـ ليكن انّها الحرب .

ـ لقد سقانا الحسين قبل أيام ... سقىٰ ألف إنسان وألف حصان .

ـ لأنّه يجهل لعبة الحرب ...

ـ بل لأنّه إنسان .

ـ ونحن ؟!

ـ أنتم لم تعودوا شيئاً. لقد مات الإنسان في أعماقكم وانتصر الخنزير القابع في نفوسكم.

ـ كفىٰ هراءً .. سوف يستسلم الحسين وعندها سأنطلق إلى «الري وجرجان» .. سأحكم بلاداً واسعة .

ـ والحسين ؟!

ـ الحسين .. الحسين .. ليتنحَّ عن طريقي وإلّا سأعبر فوق جسده.. ولتمزّقه سنابك خيل مجنونة .

7

كانت مضارب القافلة بين يدي «ذو حسم» ولو قدّر لأحد أن يراقب من فوق قمته المكان لرأىٰ خياماً متناثرة هنا وهناك حيث يمرّ الفرات تتدافع أمواجه كأفعىٰ مذعورة.

كان الحسين واقفاً أمام خيمة تعصف بها الريح من كلّ مكـان. ينظر الى الأُفق البعيد البعيد كما لو أنّه ينظر إلىٰ آخر الدنيا .

جنحت الشمس للـمغيب .. رسمت لوحـتها الحـزينة في السماء كجراح الأنبياء؛ وشيئاً فشيئاً غادرت حمرة الغروب وامـتلأ الأُفـق رماداً وفـتحت النـجوم عـيونها وراحت تـنبض في صـفحة السماء كقلوب خائفة .

في غمرة الظلام المهيمن وقد سكنت الأصوات فـلا تسـمع إلّا همساً ، هتف ابن سعد متوجساً وهو يتطلّع إلى «ابن قرظة» :

ـ ماذا تريد ؟!

ـ أرسلني الحسين للاجتماع بك بين المعسكرين .

ـ ومن معه ؟

ـ أخوه العباس وابنه علي.

ـ التفت ابن سعد إلى غلامه وإلى ابنه حفص:

ـ انهضا معي.

كان ابن سعد يجرجر خطاه مترنحاً، وآلاف الأفكار تتراكض في رأسه كأرانب مذعورة، قال في نفسه:

ـ ترىٰ ماذا سيفعل الحسين؟! هل يفرّ في جنح الظلام؟ هل يستسلم؟ هل يقاتل؟

ولكن كيف يفرّ من كان أبوه عليّ؟ وكيف يستسلم سبط محمد «للطلقاء»؟.

أم تراه سيقاتل بسبعين رجلا!!

لاح الحسين من بعيد كنخلة هيفاء.

هتفت ابن سعد مأخوذاً:

ـ أيّة روح ينطوي عليها هذا الرجل؟!

ـ أتحاربني يابن سعد... وأنا ابن من تعرف؟!

وسكت هنيهة ثم أردف مضيئاً له الطريق:

ـ كن معي ودع هؤلاء فهو أقرب إلى الله.

انتصبت أحلام ابن سعد أمام عينيه.. تجسّدت رؤىٰ وخيالات طالما شغلت رأسه واستحوذت علىٰ روحه.

رأىٰ فتيات جميلات في القصور يمرحن بغنج، فقال بنفاق:

ـ لسوف يهدمون داري.

ـ أنا أبنيها لك .

ـ وبساتيني .. انّهم سوف ينتزعونها مني .

ـ أُعطيك «البغيبغة» فيها زروع كثيرة ونخيل .

ـ وعيالي؟! انني أخشىٰ عليهم بطش ابن زياد .

أدرك الحسين ان هذا الرجل قد مات منذ أمد بعيد.. لم يعد سوىٰ جثّة نتنة.

نهض السبط وقال بغضب :

ـ مالك ؟! ذبحك الله علىٰ فراشك ..

وانكشفت له صفحة الغد فقال:

ـ لن تأكل من قمح العراق إلّا يسيراً .

تمتم «ابن سعد» وابتسامة ساخرة ترتسم علىٰ شفتيه :

ـ في الشعير كفاية .

8

جثم صمت رهيب فوق المكان وألقىٰ الحزن كـلاكـله كـغراب اسطوري؛ والقلوب الصغيرة الظامئة تصغي إلىٰ أصوات بعيدة تأتي من جهة الفرات كعواء ذئاب جائعة في ليلة شتائية. قالت امرأة اسمها زينب :

ـ لقد اقترب العدوّ .

التفت الحسين إلىٰ أخيه :

ـ انهض لترىٰ ماذا يريدون .

عوىٰ ذئب من بعيد :

ـ الاستسلام أو الحرب .

هتف حبيب مستنكراً :

ـ بئس القوم أنتم غداً عند الله .. أتقتلون سبط النـبي .. وقـوماً متهجدين بالأسحار يذكرون الله كثيراً .

قال عزرة وقد برقت عيناه بشهوة الغزو :

ـ انّك تزكي نفسك ما استطعت .

ردّ زهير :

ـان الله قد زكّاها يا عزرة. لقد سوّلت لكم أنفسكم أمراً عظيماً .

ـومتىٰ كنت شيعة للحسين يا زهير ؟!

ـ جمع بيني وبينه الطريق .. فذكرت به محمّد .

قال عزرة بصفاقة :

ـإننا نمتثل لأمر خليفته .

ـيزيد !!

ـأجل أمير المؤمنين يزيد .

هتف العباس ليضع حدّاً للمرارة :

ـإذن امهلونا هذه العشية إلىٰ غد .

ردّ ابن سعد وقد ذهبت به الظنون :

ـإلىٰ غد .. ولكن اما الاستسلام أو الحرب .

أصدر ابن سعد أمره بالانسحاب، وشيئاً فشيئا انحسرت قعقعة السلاح وكفّت الخيل عن الصهيل ولم يبق سوى أصوات تشبه عواء الذئاب في ليالي الزمهرير.

تسمّر التاريخ عند خيمة أضاءها سراج واهن.. كان يصغي إلىٰ كلمات آخر الأسباط.

ـأحمدك اللّهم علىٰ أن أكرمتنا بالنبوّة وعلّمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين.

كانت نظراته الدافئة تغمر رجالاً ينشدون الموت من أجل

الحياة، فانسابت كلماته كنهرٍ هادئ :

ـ إني لا أعلم أصحاباً أوفى من أصحابي ولا أهل بيت أبرّ من أهل بيتي... واني أظنّ أن يومنا من الأعداء غداً؛ وانّهم انما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري، فانطلقوا جميعاً وهذا الليل فاتخذوه جملا وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرّقوا في المدن البعيدة .

ـ وأنت ياسيدي ؟

ـ ما كان للحسين أن يفرّ .

ـ ما قيمة الدنيا كلّها سواك .

قال ابن عوسجة :

ـ والله لو لم يكن معي سلاح لقاتلتهم بالحجارة .

وقال الحنفي :

ـ لو قتلت سبعين مرّة ما تركتك فكيف وهي قتلة واحدة .

وقال زهير وهو يتطلّع إلى وجه مضمخ بعبير النبوّات :

ـ لو قتلت ألف مرّة فلن أدعك وحيداً .

وفي تلك اللحظات حيث تلتحم السماء بالأرض أشار الحسين فانكشفت الآفاق عن جنّة عرضها كعرض السماوات والأرض ... جنّات من نخيلٍ وأعناب والأنهار الخالدة تتدفّق مطّردة بدا الفرات إزائها كخيط من الملح والرماد .

9

ياالها من ليلة عجيبة تمرّ لحظاتها كسنين متمادية، وساعاتها كالقرون لا تكاد تنتهي لكأنّها تريد أن تستوعب التاريخ البشري بأسره.

جلس علي متهالكاً وبدا جسمه حطاماً حتىٰ لم تعد له قدرة علىٰ النهوض، يتطلّع الى النجوم.. إلىٰ عالم لا نهائي .. عالم مفعم بالصفاء.. عالم بعيد عن ويلات الأرض وما يجري فيها علىٰ يد الإنسان.

كانت خيمته إلىٰ جوار خيمة أبيه .

الحسين وحيد وحيد .. يعرف انّها النهاية أو البداية.. راح علي يرهف سمعه لكلمات أبيه وهي تمتزج مع صوت يشبه شحذ السيوف.. فالمعركة وشيكة قاب قوسين أو أدنىٰ.. وغداً يوم الفصل .

تطلّع الىٰ عمته التي دخلت توّاً ربما لتمرّضه .. جاء صوت الحسين هادئاً مثل ناي حزين، فيه عتاب للزمن الذي لا يكفّ عن الغدر :

يا دهر أفٍ لك من خليل

كم لك بالاشراق والأصيل

من طالب بحقه قتيل
وكلّ حي سالك سبيلي
ما أقرب الوعد الى الرحيل
والدهر لا يقنع بالبديل

شعر علي بالكلمات تغوص في قلبه.. تمزّق شرايينه وتذبحه من الوريد إلى الوريد، كاد أن يغرق في موجة طاغية من البكاء، والبكاء يكاد يكون سلاحاً لمواجهة الزمن الغادر. فهذا الغضب المتفجر في الأعماق يدمّر الأشياء.. يحيلها الىٰ حطام اذا لم يجد متنفساً له في الدموع. فالسماء ما تزال مشحونة لا تكفّ عن البروق، والرعود لن تهدأ حتىٰ ينهمر المطر مدراراً.

وبكى عليّ بصمت كسماء تمطر علىٰ هون.

لم تتمالك زينب.. لم يتحمل صبرها العجيب ما تسمع، فهبّت تجرّ الذيول الىٰ خيمة كالعرين.

هتفت بصوت يشبه نشيج الميازيب في مواسم المطر:

ـ ليت الموت أعدمني الحياة.. اليوم ماتت أُمي فاطمة وأبي علي.. يا خليفة الماضين وثمال الباقين.

ورمق الحسين شقيقته التي اختارت طريقه، وقال مصبّراً:

ـ يا أُختاه تعزّي بعزاء الله ... ان أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وكلّ شيء إلىٰ زوال ويبقىٰ وجه الله وحده.

قالت وهي تنتحب:

ـ أفتغصب نفسك اغتصاباً.. ان قلبي لا يطيق .

كان صمت الليل كفيل أن يجعل من الاذن الآدمية مرهفة تلتقط حتىٰ دبيب الهوام فكيف بالبكاء في زمن غادره الفرح وبدت مقرفة فيه الأشياء.

وجد الحسين نفسه وسط نسوة ينشدن الأمن في زمن الخـوف كطيور مذعورة تبحث عن أعشاشها في غمرة الظلام.

نظر الحسين إلىٰ زينب نظرة طويلة أودعها كلّ ما يريد.

قال بحزن:

ـ يا أُختاه ويافاطمة ويا رباب.. إذا قتلت فلا تشققن عليّ جيباً ولا تخمشن وجهاً ولا تقلن هجراً .

نهض الحسين يواجه الغد القادم بعد ساعات، فلقد اشتدت ظلمة الليل وبدت النجوم أكثر بريقاً لكأنّها عيون مفتوحة ترقب ما يجري علىٰ شاطئ الفرات بين النواويس وكربلاء. وهناك علىٰ شاطئ النهر قطعان الذئاب تنتظر لحظة الانقضاض علىٰ الانسان.

10

ما تزال النجوم مسمّرة في السماء كمسامير في لوح كحلي وقد بدا الجوّ مشحوناً بالخطر؛ فالقافلة التي ألقت مراسيها في هذه البقعة من الأرض تحاصرها قطعان الذئاب.

خرج الحسين يتفقّد أرضاً ستصبح بعد ساعات ميداناً لملحمة عظيمة يتحطّم فيها الإنسان ولكنه لن يهزم أبداً تتمزّق فيها الأجساد الآدمية امّا الروح فستبقىٰ متألقة قويّة كما خلقها الله وأودع فيها كلمته.

هتف «الجملي» وكان قد أقلقه خروج الحسين إلىٰ أرض يحدق بها الغدر من كل مكان :

ـ الىٰ أين يا سيدي الحسين . لقد أفزعني خروجك وحيداً . أخشىٰ عليك الغدر.

ـ خرجت أتفقّد هذه التلال.. أخشىٰ أن تكون مكمناً لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون.

وأردف وهو يشدّ علىٰ يده بدفء :

ـ انظر .. خيامنا مكشوفة الظهر؛ علينا أن نحفر الخنادق حتىٰ لا تفاجئنا الخيل.. والخيام مبعثرة علينا أن نقارب بينها حتىٰ لا ينفذوا خلالها.

هتف الجملي مبهوراً برجل لا يعرف اليأس رغم عنف العاصفة :

ـ سيكون القتال في جبهة واحدة .

ـ نعم في جبهة واحدة ..

لم تحن لحظة الفلق بعد عندما دبّت في معسكر الحسين حركة تشبه دوّي النحل.. النحل الذي لا يعرف غير العمل.

تشابكت أوتاد الخيام في عناق صميمي كأنّه يعكس تلاحم القلوب.. القلوب التي لا تعرف غير الحبّ ..

وانبرىٰ رجال يحفرون الخنادق ليملأوها حطباً؛ فاذا اشتعلت المعركة تحوّل الخندق الىٰ خطوط ملتهبة .

شدّ رجل صحب النبي وشهد معه «أُحداً» جبينه بعصابة فأضاء مشهد في ذاكرته.

كان صوت النبي وهو يخطط للمعركة عند جبل أُحد مدوّياً:

ـ انضحوا الخيل بالنبل، لا يأتونا من خلفنا .

انطلق الرماة الىٰ جبل «عينين» ووصايا النبي في آذانهم.. احموا لنا ظهورنا .. ارشقوهم بالنبل فان الخيل لا تقدم علىٰ النبل.. انّا لانزال غالبين ما لبثتم مكانكم.

انطفأ المشهد.. وبلع الصحابي ريقه بمرارة لأنّه تذكّر كيف نسي

الرماة وصايا النبي فاجتاحت خيول قريش جيش محمّد وراحت تفتك به كذئاب في ليلة زمهرير موحشة.

راح يحدّق بسبط محمّد لكأنّه ورث عبقرية جدّه.. رجل لايعرف للهزيمة معنىٰ.. انّه يقتحم الموت اقتحاماً، ينهال علىٰ صخرة العطش ليفجّر منها ينابيع من سلسبيل.

انفلق الفجر وتبيّن للكائنات الخيط الأبيض من الخيط الأسود. وشيئاً فشيئاً لاحت من بعيد ذرىٰ النخيل تحف الشطآن كعيون حورية شهيدة.. وقد نزلت سورة المقاومة.

هاهي الذئاب تعوي أسكرتها شهوة القتل، كدوّامة راحت القبائل تدور حول قافلة جاء بها القدر.

كان عليّ ينوء بنفسه .. بجسده الواهن .. وقد أخفقت روحه العظيمة أن تنهض به؛ وفار غضب سماوي في أعماقه وهو ينظر إلىٰ والده متقلّداً سيف محمّد يقاتل أشباه الرجال انّهم لا أيمان لهم.

تمتم بغضب:

ـ يا أُمّة السوء بئسما خلفتم محمداً في ذرّيته.

ودمعت عيناه وهو يراقب أباه يستوي علىٰ ناقة. فبدا في عليائه كنبيّ يعظ قومه وينذرهم سوء العذاب، راح يصغي إلىٰ كلمات الحسين وقد أشرقت شمس أطول يوم في التاريخ.

ـ أيّها الناس ان الله تعالىٰ خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال؛ فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته،

فلا تغرنّكم هذه الدنيا فانّها تقطع رجاء من ركن اليها وتخيّب طمع من طمع فيها وأراكم قد اجتمعتم علىٰ أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم وأعرض بوجهه الكريم عبكم، وأحلّ بكم نقمته. فنعم الربّ ربنا وبئس العبيد أنتم. أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمّد ثم انّكم زحفتم إلىٰ ذريته وعترته تريدون قتلهم. لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون. انّا لله وانّا اليه راجعون . هؤلاء قوم كفروا بعد ايمانهم فبعداً للقوم الظالمين.

كانت الكلمات تنفذ في قلبه تفجر حزناً وغضباً ودموعاً.

غامت المرئيات أمام عينيه، وتلاشت زعقات الرجال وصهيل الخيول، وشعر بروحه تحلّق بعيداً حتىٰ لم يعد يشعر بكلّ ما يجري حوله من أهوال.

11

لا يدري كم مضىٰ من الوقت عند أفاق.. ولكـنّه عـندما فـتح عينيه ألفىٰ ما حوله يدور في دوّامة رهيبة وقد تسمّرت الشـمس في الأفق تتشظىٰ لهيباً وجحيماً، وكان أبوه في قلب أصحابه وأهل بيته، وقد هبّوا جميعاً يكتبون بالدماء واحدة من أعظم الملاحم في تـاريخ الإنسان.

رمىٰ «ابن سعد» أولىٰ سهام الموت معلناً بداية الحرب وصرخ بغرور:

ـ اشهدوا لي عند الأمير اني أوّل من رمىٰ.

وانطلقت آلاف السهام لكأن السماء تمطر وابلاً من نبال.

هتف الحسين محطماً جدران الزمن:

ـ قوموا الى الموت الذي لابدّ منه .. فإن هذه السهام رسل القوم اليكم.

حانت لحظة الالتحام. سبعون أو يـزيدون يـقاومون إعـصاراً محمّلاً بحقد الشياطين وهي ترىٰ الملائكة تسجد للإنسان.

تبدّد غبار الاشتباك، وقد أسفرت المعركة عن خمسين جريحاً تناثروا فوق الرمال.

ولو قدّر لك أن تكون في تلك الساعة فوق قمّة «ذو حسم» لرأيت سبط آخر الأنبياء في التاريخ وهو يعيد تنظيم قوّاته استعداداً لجولة أُخرىٰ .. ولذهلت لبسالة انسان لا يعرف لليأس سبيلاً إلى نفسه. قلبه الذي يضاهي الجبل بثباته لا يعرف غير المقاومة.

انظر الى الجناح الأيمن في جيش يزيد. لقد بدأ هجوماً كاسحاً. كان عمرو بن الحجاج يقود ذئابه لحسم المعركة.

كان رجال الحسين يقاتلون بعزم حديدي أو أشدّ بأساً .. حتىٰ أجبروا المهاجمين علىٰ التراجع .. وقد سقط «ابن عوسجة» مضمخاً بالدماء يتمتم بصلاة هادئة.

قال حبيب وكان صديقاً له :

ـ عزّ عليّ مصرعك يا مسلم! ابشر بالجنّة .

همس بصوت واهن وقد ارتسمت ابتسامة كشمس تشرق من وراء الغيوم :

ـ بشّرك الله بالخير .

قال حبيب :

ـ لو لم أعلم اني في الأثر لأحببت أن توصي إليّ .

أجاب مسلم ملقياً وصيته الخالدة للأجيال :

ـ أوصيك بالحسين أن تموت في سبيله .

هتف حبيب وقد تفجّر في أعماقه غضب سماوي :

ـ أفعل وربّ الكعبة .

ظهر الشمر كخنزير يقود الجناح الأيسر من جيش يزيد .. هاهو يستعد للغدر والفتك وقتل أولاد الأنبياء .

واستعد رجال الحسين لصدّ الهجوم، وامتلأ الفضاء غباراً وهيباً وبدت السيوف في غمرة التراب المتطاير صواعق تحتفل فوق الأرض.

صرخ الشمر وهو يمزّق خيمة الحسين بالرمح :

ـ عليّ بالنار لأحرقها على أهلها .

فرّت النسوة والأطفال كطيور هاربة من سفن غرقت في القرار.

12

أشعلت القبائل النار في أطراف الخيام عن اليمين وعن الشمال للإطباق علىٰ معسكر الحسين.

هتف السبط بأصحابه:

ـ دعوهم يحرقونها فانّهم إذا فعلوا ذلك لم يجوزوا اليكم.

حمي الوطيس وقد توسطت الشمس كبد السماء وهي ترسل حممها فوق بقعة من الأرض ملتهبة؛ والذئاب تعوي منتشية بثأر قديم.

قال «الصائدي» وقد زالت الشمس:

ـ اني لأحب لقاء الله والصلاة معك.

رفع الحسين طرفه إلى السماء:

ـ ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلّين الذاكرين. نعم هذا أوّل وقتها سلوهم أن يكفّوا عنّا حتىٰ نصلّي.

جاء صوت الحصين يقطر نذالة:

ـ انّها لا تقبل منكم.

هتف حبيب بغضب :

ـ زعمت انّها لا تقبل من آل الرسول وتقبل منك يا حمار.

وتوجّه الحسين بأصحابه الىٰ السماء وقد حانت لحظة اللقاء.

عندما تصفو النفوس تتحوّل إلى أرواح مجـرّدة تـتخلص مـن اهاب الجسد وتحدث لحظة الانعتاق بين ما هو ملكوتي يـنتمي إلى السماء وبين ما هو مادّي ينتسب إلى الأرض.

في تلك اللحظات العصيبة والأجساد تـنزف دمـاً لله تـفتّحت أبواب السماء وهتف الحسين مأخوذاً بما يرىٰ من عوالم وردية :

ـ يا كرام هذه الجنّة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يـتوقعون قدومكم ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين الله ودين نبيّه .

وتضاءلت الدنيا حتىٰ أصبحت أتفه من جناح ذبـابة، وهـتف الإنسان الذي انتصر الملاك في أعماقه:

ـ نفوسنا لنفسك الفداء ودماؤنا لدمك الوفاء.. والله لا يصل اليك والىٰ حرمك سوء وفينا عرق يضرب.

لقد تحوّل الحسين إلىٰ رمز لكلّ الفضائل الإنسانية فالدفاع عنه دفاع عن انسانية الإنسان وقهر الشيطان .

كان عليّ يرقب من خيمته هول ما يجري فوق الرمال. لا أحد يدري كم هي المرّات التي كان يـنهض فـيها ليهـوي مـتهافتاً فـوق الأرض.. يالضعف الجسد الآدمي ويالعذاب الروح التي لا تجد مـن

يحملها ليحقق إرادتها، فلا هي تـنعتق لتـحلّق بـعيداً عـن ويـلات الأرض ولا هي تنهض بهذا الجسد الذي غدا حطاماً لا يقدر عـلىٰ شيء.

ما أصعب تلك اللحظات. السيف المعلّق فـوق عـمود الخـيمة ينتظر صاحبه.

للمرّة الأخيرة نهض حفيد علي، واستند الىٰ عصا وحمل سيفه. بدا له انّه يحمل الأرض ومن فيها. جرجر نفسه وسـيفه إلىٰ خـارج الخيمة .. كان هدفه أن يلتحق بالحسين بأي ثمن.

هتف الحسين بأُخته وقد وقعت عيناه عليه:

ـ احبسيه لئلا تخلو الأرض من نسل محمّد.

ووجد علي نفسه مرّة أُخرىٰ في الفراش فشعر ان روحه تكـاد تخرج وغامت المرئيات أمام عينيه حتىٰ لم يعد يسمع صوتاً أو يشعر بشيء.

13

الزمان يمرّ ... يمرق كنهر تتدافع أمواجه.. لا يتوقّف لأحد فـهو يمضي لغايته.. الينابيع تدرك سرّ النهر لهـذا فـهي تـفور... وحـدها المســتنقعات والبرك الآسـنة لا تـعرف سرّ الفـوران ؛ لهـذا يمـوت الآدميون.. ينطوي ذكرهم وتبقىٰ جراح الأنبياء وحدها تفور .. تدرك لغز الزمن .

كان نهر الزمن يجري .. يتسابق مع الفرات الظامئ وهبّ عـلي علىٰ صوت صهيل غاضب يصك سمع الدنيا.. لقد هوىٰ الفارس الذي دوّخ القبائل والفرس تـدك الأرض بسـنابكها تـريد أن تـوقظ في الأرض سرّ الولادة.

اهتزت الأرض .. رجفت بأهلها ومادت .. لقد قـتل هـابيل .. دماؤه تلوّن الأرض .. الذعر يغزو القلوب الآدمية .

سقط رأس يحيى بين يدي «سالومي».

هوىٰ «ابن أبي طالب» في المحراب مضمخاً بالدماء.

ما يزال غبار المعارك عالقاً في الهواء، وبدا الأُفق مستعراً بحـمرة

دامية.

ألفىٰ عمته تشقّ طريقها نحو آخر الأسباط في التاريخ. صوتها يشقّ الفضاء:

ـ ليت السماء أطبقت علىٰ الأرض .. وليت الجبال تدكدكت علىٰ السهل.

مثل دوّامة ما لها من قرار كانت الذئاب تدور حول رجل من ذريّة الأنبياء..

السيوف المجنونة تتخطف ابن بنت نبي هو أعظم الأنبياء.

كان علي ينوء بروح مثقلة بهموم كالجبال.

الأرض تستعيد لحظات قديمة قدم الجبال في الجزيرة.

كان «صالح النبي» يعظ قومه وقد تمخض الجبل وولدت الناقة:

ـ يا قوم هذه ناقة الله لكم آية.

كانت ناقة مباركة تدرّ لبناً سائغاً للشاربين. وتساءل الآدميون:

ـ كيف تلد الصخور ناقة بهذا الجمال.. بهذا العطاء.. كيف تدرّ كلّ هذا اللبن؟!

لم تؤمن قبائل صالح.. والقلوب المظلمة لا تلد غير الحقد والضغينة والمؤامرة.. قلوب منحوتة من صخور صمّاء.. وان من الحجارة لما تتفجّر منها الينابيع.

وهكذا تحوّل الحقد على «صالح» الىٰ حقد على «الناقة» وطفلها الصغير.

في تلك الليلة العاصفة والرياح تهبّ من ناحية الشمال .. وكانت الناقة تحتضن فصيلها الوديع، والطفل يزداد التصاقاً بـأُمّه يـلتمس الدفء والمحبة والسلام؛ في تـلك اللـيلة ولدت المـؤامـرة وجـلس «الرهط» يفكرون.

كانت كؤوس الخمرة تدور فسوّل لهم الشيطان أمراً.

كما تنسج العنكبوت خيوطها نسج المخمورون مؤامرتهم استلّوا خناجرهم وانسـلّوا في غـمرة الظـلام. كـانت النـاقة غـافية هـي وصغيرها ..

كانت الظلمة كثيفة الىٰ حـدّ جـعلهم يـتعثرون وهـم يشـقّون طريقهم إلىٰ حيث ترقد الناقة بسلام.

كانوا تسعة أشبه ما يكـونون بـالذئاب .. الذئـاب التي تـزداد شراسة وغدراً كلّما تكاثف الليل .

ونشبت خناجر تسعة في قلبين ينبضان بالدفء والحبّ والعطاء؛ وسالت الدماء حمراء حمراء صبغت الأرض ولوّنت الصعيد .

واستيقظت ثمود وقد حلّ في الأرض خوف رهيب؛ لم تعد هناك معانٍ لمواعظ الأنبياء؛ لقد حلّت اللعنة.

كان صالح يتمتم بحزن وهو يرىٰ غضب السماء قاب قـوسين أو أدنىٰ :

ـ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غير مكذوب .

وغادر صالح القبيلة الملعونة..

ومضىٰ يوم وأعقبه يوم ثم يوم، ثم انشـقت السماء عـن صـيحة جبّارة.. انقضّت علىٰ قصور منحوتة في قلب الجبل فجعلتها دكـاً ... وماهي إلّا لحظات وقد تحوّل كلّ شيء إلىٰ حطام وأنقاض متراكمة بعضها فوق بعض ... لم تكن هناك سوىٰ عيون تبحلق برعب ودناءة تحكي قصّة الغدر والخيانة ودسائس الشيطان.

الحسين ما يزال ينوء بنفسه .. تتدفق جراحه دماءً تلوّن الأرض وتصبغ الصعيد بلون جديد.

14

ما أقسىٰ هذا الزمن المرير، وما أشدّ هذه اللحظات هولاً، كيف تتحطّم الأشياء الجميلة، وتهرب من هذا العالم، ليظهر الشيطان بقرنيه يعربد ويدمّر.

هاهو الأبرص يرتقي صدر السبط؛ كغراب اسطوري جاثم. القبائل مأخوذة بما يجري فوق الرمال. كانت أوداج الحسين تشخب دماً... تتدفق مثل نافورة أزلية تسقي الأرض تودعها الأسرار.

همس الحسين بصوت أضعفته الجراح المتدفقة:

ـ ويلك .. لقد ارتقيت مرتقىً عظيماً.. فمن تكون ؟

فتح الجاثم بوزه فبانت أنياب ينزّ منها صديد:

ـ أنا الشمر الضبابي.

ـ أتعرفني يا شمر ؟

ـ أجل .. أعرفك .. فأنت الحسين وجدّك رسول الله وأمّك فاطمة.

ـ فلِمَ تقتلني إذن ؟

ـ أُريد بذلك جائزة يزيد .

ـ وشفاعة جدّي محمّد؟ ألا ترغب في شفاعة رسول الله ؟!

ـ شفاعة محمّد .. ما قيمتها انّها لا تساوي لديّ دانقاً واحداً .

وساد صمت رهيب .. انّه السكون الذي يسبق حدوث الكوارث .

تمتم الحسين بحزن :

ـ صدق جدّي محمّد .

ـ ترىٰ ماذا قال محمّد ؟

ـ قال لأبي : يا علي يُقتل الحسين بأرض تدعىٰ كربلاء يقتله رجل أشبه بالكلاب والخنازير .

ـ محمّد يشبّهني بالكلاب والخنازير.. لأذبحنّك .

انفجر الحقد وراح يعربد في أعماقه ككلاب مسعورة وخنازير .

السيف الضبابي يشقّ طريقه الآثم في شرايين الحسين يقطّع الأوردة والعروق..

ندّت آهة عظيمة وانطفأت عينان كانتا تضيئان العالم.

الدنيا مظلمة ... والكائنات مذعورة .

السماء تهطل دماً عبيطاً ... وفرس غاضبة تصهل عالياً تتجه صوب الفرات الظامئ فتغوص في لجّة المياه والقرار.. ورأس الحسين فوق رمح طويل يدور ويدور وقد زلزلت الأرض زلزالها.. وارتجفت الكائنات .

وفي تلك اللحظة بدا كلّ شيء مقرفاً تافهاً لا معنىٰ له... وتحوّلت تلك البقعة من الأرض إلى مسرح رهيب، تتكاثف فيها مخاوف آدم كلّها وقد حاصرته الشياطين من كلّ مكان؛ ما يزال يبحث عن كهف يأوي إليه؛ والشياطين تحمل مشاعل من نار ودخان تريد أن تحرق كلّ شيء.

القبائل المجنونة تنشب النار في الخيام .. ألسنة الجحيم تلتهم الأعمدة .. وقلوب صغيرة تفرّ مذعورة هنا وهناك كطيور هاربة من سفن تائهة غرقت في الظلام.

الخيول المجنونة تعبر جثة الحسين تستبيح كلّ ما يصادفها، لم يعد هناك شيء مقدّس. لقد تحطّم كلّ شيء .. لم يعد هناك شيء ثابت. كلّ شيء يهتز تحت وقع سنابك الخيل وأقدام القبائل وقرون الشياطين.

15

كذئاب مسعورة انشبت أنيابها في الخيام، وقد أيقظ الشيطان شهوة الغزو والنهب في النفوس الآدمية.

فرّ الأطفال علىٰ وجوههم، وقلوبهم تبحث عن رجل كان يحميهم. الأيدي الصغيرة تتشبث بالهواء، والقبائل تطارد نسوة حاسرات، والمخالب البشرية تنتزع أقراطاً وأساور.

أنشب ذئب مخالبه في قرط لفاطمة وانتزعه بقسوة. سالت الأُذن دماً.

كان الرجل يبكي .. تسيل دموعه.. يعبّر عن ذات منفصمة .. عن شرخ بين ضميره وإرادته، بين قلب يعرف الحقّ وأيدٍ ملوّثة تريد خنقه.

وتعجبت الفتاة المقهورة من دموع التماسيح:

ـ مالك تبكي؟

قال وهو ينتزع القرط الآخر:

ـ كيف لا أبكي وأنا أسلب إبنة محمّد.

ـ دعني إذن .

صاح السامري المبهور بالذهب :

ـ أخاف أن يأخذه غيري .

واقتحمت الذئاب خيمة فيها علي .

جرّد الأبرص سيفاً مايزال مضمخاً بدماء الحسين، كلمات الأرقط ما تزال تدوّي في أعماقه :

ـ لا تدعوا منهم صغيراً ولا كبيراً .

انبرت زينب بشجاعة والدها العظيم :

ـ لا يقتل حتىٰ أُقتل دونه .

هتف ذئب لم يرتطم بقعر الحضيض بعد:

ـ انّما هو صبي مريض .

بدا «ذو حسم» كناسك حزين أو شيخ أحنت هامته السنون فهو ينظر ساهماً إلىٰ ما يجري حوله. الفضاء يمتلأ دخاناً وألسنة النار كرؤوس الشياطين تلتهم خياماً تعصف بها الريح من كلّ مكان .

والذئاب تعوي مأخوذة بشهوة النهب.

مثل دوّامة مالها من قرار، كانت القبائل تدور حول نسوة وأطفال؛ قلوب صغيرة خائفة كحمائم بريّة وسط ريح شتائية عاتية ودموع كلآلئ انفرطت عن نظمها، تسحّ من عيون تجمّعت فيها غيوم حزينة .

يومٌ للدماء ويوم للدموع حتىٰ تطهر الأرض ويغتسل الإنسان .

لتتدفق الدموع أنهاراً تغسل كلّ الأدران الآدمية، لتتفجر ينابيع الحزن، ليندم قابيل مدىٰ الحـياة .. ليـختبئ في الكـهوف والمـغارات وليواري سوأته ليطهّر يديه من دماء أخيه هابيل. مـا يـزال هـابيل المضمخ بأولى الدماء البشرية يطارده في كلّ مكان.

كمرأة اكتشفت هول جريمتها توّاً بدت الكوفة في تلك الظهيرة الملتهبة ...

نساء وأطفال ونياق وجمال هو كلّ ما غنمته القبائل من عارها الأبدي.

كان منظر عليّ فوق بعير ضالع وقد غُلّت يداه إلى عنقه والدماء تشخب من أوداجه يجسّد وحشية القبائل المفتونة بالغدر.

ياهذا الأسير الحرّ انّه ينظر الى ما وراء الأيام؛ نظراته تهيمن علىٰ الحشود البشرية المتراصّة تريد أن تصغي إلى كلمات الإنسان عندما يقهر هل يخضع أم يثور . ولكن عليّاً انتهج طـريقاً آخـر للـمقاومة والصبر.

سكنت الأنفاس وهدأت الأجـراس، وهـيمن صـمت مـهيب فانسابت كلمات كنبع سماوي :

ـ أيّها الناس: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي، أنا ابن من انتهكت حرمته، وسلبت نعمته وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غـير ذحـل ولا ترات، أنا ابن من قتل صبراً وكفىٰ بذلك فخراً. أيها الناس نـاشدتكم

الله هل تعلمون انّكم كتبتم إلىٰ أبي وخدعتموه واعطيتموه من أنفسكم العهود والميثاق والبيعة؟

كان الصمت ما يزال مهيمناً يضج : نعم .. نعم .

وأدرك علي ضجيج الصمت المثقل بالندم:

ـ فتباً لكم لما قدّمتم لأنفسكم، وسوأة لرأيكم، بأيّة عين تنظرون إلى رسول الله إذ يقول لكم : قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي فلستم من اُمتي .

مثلما ينفجر البركان.. مثلما تنهار قشرة الأرض عن كظم الحمم الفائرة، انفجر الحشد المشدوه بالبكاء... البكاء الذي يحكي قصة التيه والضياع واليأس.

وانفتحت كوّة من أمل :

ـ رحم الله امرءاً قبل نصيحتي وحفظ وصيتي في الله وفي رسوله وأهل بيته، فان لنا في رسول الله اُسوة حسنة .

هتفت الحشود البشرية المتراصة، وتدفقت الكلمات كأجساد تتراكض نحو باب الخلاص:

ـ نحن يابن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك، ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك يرحمك الله فانّا حرب لحربك، وسلمٌ لسلمك، نبرأ ممّن ظلمك وظلمنا .

ما تزال الكوفة هي هي لم تتغيّر بعد . الكلمات المعسولة والوعود الفارغة، التي تعبّر عن ضمير مذعور وإرادة ميتة.

التاريخ لا تصنعه الكلمات الجوفاء والوعود الطنانة.. تصنعه الإرادة الفولاذية والقلوب التي لاتعرف غير الحقّ ..

هتف علي بصوت مبحوح من الحزن:

ـ هيهات .. هيهات .. أيّها الغدرة المكرة.. حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلىٰ أبي من قبل؟ كلاّ وربّ الراقصات، فإن الجرح لما يندمل، قتل أبي بالأمس وأهل بيته ولم ينس ثكل رسول الله وثكل أبي وبني أبي، ان وجده والله لبين لهاتي، ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصّته تجري في فراش صدري.

16

مضى التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك، ورأس الحسين على رمح طويل يطوف المدن يتحدّث بلغة الصمت.

جلس الأرقط وكان رجلاً لا يعرف جدّه .. ألقىٰ بجسمه فوق سرير مذهب وخيّل اليه انّه يحكم العالم بأسره ..

بين يديه رأس مقطوع، في طست من ذهب.

ردد الأرقط في نفسه:

ـ لقد سكت الحسين سكت إلى الأبد .. وها أنا أحكم العراقين.

وأردف بنفاق لكي يسمعه الآخرون:

ـ إنّها إرادة الله .. لأنّ كلّ شيء يمضي بمشيئة الله ... وقد قتل الله الحسين.

كان الصمت ما يزال مهيمناً على المكان.

التفت الأرقط الى فتىً مكبّل بالسلاسل:

ـ ما اسمك؟

ـ علي بن الحسين.

ـ ألم يقتل الله عليّاً ؟

ـ ...

فحّ كأفعى :

ـ مالك لا تتكلّم ؟

ـ كان لي أخ أكبر منّي يدعىٰ عليّاً وقد قتله الناس .

شعر الأرقط بحدّة الصفعة فصرخ بغيظ :

ـ بل قتله الله .

ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله .

اتسعت عيناه كحيّة رقطاء وأشار إلى الجلّاد.

اعترضت زينب بغضب :

ـ حسبك يابن زياد من دمائنا ما سفكت . وهل أبقيت أحداً إلّا هذا ؟ فان أردت قتله فاقتلني معه .

سدّد الفتىٰ نظرة احتقار :

ـ أما علمت ان القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة .

نهض الأرقط وغادر المكان ولوّح بسوطه في الهواء وهتف بغرور :

ـ الى السجن .

تراكض الجلاوزة، كانت حركاتهم المرتبكة تنبئ عن ذعر وذلّة لنفوس انطفأت فيها جذوة الرجولة .

حشرت النسوة في دار إلى جانب المسجد الأعظم حوّلها الأرقط إلى سجن، واقتيد علي بسلاسله إلى الطامورة.

فتح شرطي تبدو عليه الفظاظة باباً يفضي إلىٰ دهليز صخري تحت الأرض ومضىٰ الحرّاس يشقون طريقاً ملتوياً ضيّقاً تتفرّع عنه ممرات.

توقفوا عند زنزانة تشبه القبر، أمسك أحدهم بالأسير وحشره بقسوة؛ ثم عادوا أدراجهم، وشيئاً فشيئاً غاب ضوء المشاعل وخفتت أصداء الخطىٰ وغمر الظلام المكان ولم يعد يسمع سوىٰ صدىٰ أنفاسه.

كنبع يتدفق بارداً شعر السجين بالسكينة تترقرق في قلبه وتجري في جوانح صدره؛ لا شيء سوىٰ الله .. الله وحده الحقيقة المطلقة وما عداه أوهام وخيال. وكلّ من ينتمي إلى الله ستكون من نصيبه الحقيقة.

مثل بوصلة في سفينة مبحرة وسط الظلمات كان قلبه يتجه إلى الله .. إلى الحبيب يهتف باسمه العظيم قائلاً:

ـ سبحانك اللّهم وحنانيك ..

سبحانك اللّهم وتعاليت ..

سبحانك اللّهم والعزّ ازارك..

سبحانك اللّهم والعظمة رداؤك..

سبحانك اللّهم والكبرياء سلطانك ..

سبحانك من عظيم ما أعلمك !

سبحانك سبّحت في الأعلىٰ .. تسمع وترىٰ ما تحت الثرىٰ .

سبحانك أنت شاهد كلّ نجوى ..

سبحانك موضع كلّ شكوىٰ ..

سبحانك حاضر كلّ ملأ.

سبحانك عظيم الرجاء .

سبحانك ترىٰ ما في قعر الماء .

سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار .

سبحانك تعلم وزن الأرضين..

سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر..

سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور..

سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء ..

سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرّة ..

سبحانك قدّوس قدّوس ..

سبحانك عجباً من عرفك كيف لا يخافك ..

سبحانك اللّهم وبحمدك .. سبحان الله العلي العظيم .

ما أقوىٰ الروح عندما تحلّق في سمائها.. وما أشدّ صفاءها وهي تنسلّ من بين قضبان الجسد... انّها تنتمي إلى عالم آخر .. عالم لا يمت إلىٰ عناصر التراب بشيء.

17

ما أكثر الزنزانات في تلك «الطامورة» زنزانـات تشـبه كـهوفاً مهجورة .. أو قبوراً استيقظ ساكنوها بعد رقاد طويل .

كانوا ثلاثة .. تفصلهم عن وجه الأرض أشبار ..

قال المختار لصاحبيه وقد امتزج صوته برنين السلاسل :

ـ استعدا للموت .. أشعر بأن يومنا قد دنا .

همس عبدالله بن الحارث :

ـ أجل ان هذا الطاغية لن يتهيّب من قتل الناس جميعاً وكـيف يهاب أحداً وقد قتل الحسين؟!

تمتم المختار بأسىٰ :

ـ الحسين ... أيمكن أن يحدث هذا.. أمر فـوق التـصوّر .. كـيف يجرؤ انسان علىٰ ارتكاب جريمة كهذه ؟!

قال ميثم وقد كان معتصماً بالصمت :

ـ ولِمَ لا .. ألم يقتل قـابيل هـابيل؟ ألم يحـاول فـرعون البـطش بموسىٰ.. وعيسىٰ عندما أرادوا أن يصلبوه فرفعه الله اليه .. وعـليّ ..

أنسيتم دمه المراق في المحراب..

كـلّما اتـذكر عـليّاً .. هـذا الرجـل العـظيم .. أزداد احسـاساً بالحقائق... ويشتد ايماني بأن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة ما لم يحقّ الانسان حقّاً أو يبطل باطلاً ..

وأردف وكأنّه يخترق الجدار الصخري بنظراته :

ـ أبشرا بالنصر .

همس ابن الحارث بدهشة :

ـ عن أي نصر تتحدّث يا ميثم؟ أفي مثل هذه القيود ؟!

هزّ المختار رأسه أسفاً :

ـ لقد انتصرنا يوماً ما .. أما الآن فقد انتهينا وانتهىٰ كلّ شيء.

أجاب صديق علي وقد تمثّلت أمامه نبوءات سمعها ذات يوم :

ـ كلا يا مختار .. نحن لم ننته ولن ننتهي .. لأننا مع الحق والحق باق أبد الدهر.

وأردف كأنّه ينظر إلى صفحات المستقبل :

ـ ستخرج يا مخـتار من السجن وستنتقم لدماء الحسين وتـقتل هذا الذي يريد قتلنا وتطأ بقدميك وجهه .

وسادت صمت مهيب لكلمات قالها علي وهو يستشرق آفـاق الزمن القادم.

مضت لحظات كأنّها قرون عـندما دوّت خـطىٰ ثـقيلة كـانت تقترب شيئاً فشيئاً ويزداد صداها وهي ترتطم بجدران الصخر حتىٰ

باتت كأنّها تغرق العالم.

أدار الحارس الفظّ المفتاح في قفل فانفتح طرف السلسلة وبـدا وجهه القاسي في ضوء المشعل كشيطان.

شقّ الحارس طريقه وانتزع سجيناً محكوماً بالموت بغلظة.

هتف المختار وهو يعني ما يقول:

ـ إلىٰ أين يا ميثم؟

ـ أجاب ميثم بهدوء:

ـ الىٰ جذع نخلة ينتظرني منذ عشرين سنة.

وأدرك المختار وصاحبه ـ ان الرجل مصلوب.

وفي قصر بني على الظلم..

قال «الأرقط» وهو يصعّد النظر بالسجين بازدراء:

ـ أهذا الأعجمي يكون صديقاً لعلي.

أجاب أحدهم:

ـ أجل .. ولقد كان تمّاراً يبيع التمر في السوق.

سأل الأرقط باستخفاف:

ـ أين ربّك؟

أجاب السجين:

ـ انّه بالمرصاد.

ـ هل أخبرك أبو تراب عن مصيرك؟

ـ اني لأعرف النخلة التي سأُصلب عليها ..

ـ لأكذّبنه .

ـ أتكذّب وصيّ محمّد ؟!

صرخ الأرقط بعصبية :

ـ أعيدوه إلى السجن :

واستدرك وهو يلوح بسوطه :

ـ بل اصلبوه والحقوه بأصحاب أبي تراب.

ابتسم السجين وهو يتطلّع إلى رجل سيسقط رأسه الفارغ عند أقدام الثائرين.

18

الطريق بين الكوفة ودمشق مترع بحزن مرير لمن يعرف الصراع بين المدينتين.

لاح الفرات من بعيد حيّة ترقد وسط الصحراء، وقد نهضت علىٰ جانبيها النخيل كرماح مركوزة.

أشار الدليل إلى بقعة قرب منعطف الفرات وهتف ربما لينبش ذكريات قديمة:

ـ هاهو صفين.

بدا السهل المنبسط الممتد علىٰ مدى الشطآن مقفراً تماماً. لقد اختاره القدر ذات مرّة ليكون ميداناً للصراع ومسرحاً للاختيار بين علي ومعاوية .. بين الروح والغريزة...

غير ان النفوس التي أخلدت إلى الأرض اختارت معاوية، وظلّ علي وحيداً مضمخاً بالدماء وهو يصلّي لله في المحراب.

كان الأبرص ينظر برعب الىٰ صفين. ارتجف شاربه الكث ..شعر بأن يزيد يتطلّع اليه بغيظ وحقد؛ لأنّه كان جندياً يوماً ما في جيش

علي. تمتم في نفسه :

ـ لقد مضت عشرون سنة.. وهي كافية لتمسح الماضي البعيد وها أنا أحمل رأس ابن علي هدية إلى ابن معاوية .

بدا رأس الحسين في ذروة الرمح يتطلّع الى الأفق البعيد كأنّه ينظر إلىٰ آخر الدنيا.

أشار الدليل للاستراحة في مكان علىٰ الشاطئ.. ليكون محطة لاستراحة الخيول .. والأسرىٰ ..

جحظت عين الأبرص حقداً ونَهَرَ الدليل بفظاظة ...

ـ ألم تجد مكاناً غير هذا ؟!

ـ انّه مكان كثيف الظلال .. ومياه النهر سهلة الورود والخيل سريعة التعب .

صعد الأبرص نظره في الدليل :

ـ لعلّك أشفقت علىٰ الأسرىٰ ؟

أجاب الدليل وهو يتطلّع إلى الفتىٰ المغلول :

ـ لقد حيّرني صمته.. انظر اليه، الى سكينته، إلى بريق عينيه .

ـ كفىٰ هراءً .. أنت لا تكفّ عن الثرثرة ..

مشىٰ الدليل إلى الفتى المكبّل بالسلاسل .

صرخ الأبرص وقد أدرك ما يرمي اليه :

ـ ماذا تفعل أيّها الأحمق؟

ـ أفك عنه الأغلال ليستريح قليلاً .

ـإذن ألهب ظهرك بالسياط .

هرعت الخيول إلى الشاطئ لترتاد المياه المتدفقة .

وبركت النوق في الظلال .

كان الدليل يفكّر بطريقة لمساعدة الفتىٰ وهو يسير باتجاه الشاطئ.

توقف علي عند جذع نخلة وراح يتأمل الأمواج المتدافعة وهي تتألّق في ضوء النهار.. تمثّلت امامه مشاهد من يوم طويل... يوم شهد الفرات الزاخر بالمياه ملحمة الظمأ.. ودوّت في أُذنيه أصداء الأطفال وهم يهتفون : العطش .. العطش.

جلس الفتىٰ عند حافة النهر ولامست المياه قدميه الملتهبتين ... تطلّع إلىٰ نقطة في سماء بعيدة الغور .. وتمتم بكلمات . تساقطت السلاسل من يديه وغاص أحد طرفيها في الماء ...

تسمّر الدليل في مكانه ، وسقط فكّه الأسفل دهشة .. وظلّ مبهوتاً وهو يتطلّع بعينين مفتوحتين انبهاراً إلى المياه وهي تنثال من بين كفيه ..

أتمّ الفتىٰ وضوءه ثم أخذ غرفة ليشرب . أدناها من فمه . ولمّا همّ بالشرب توقف كلّ شيء .. لكأن شيئاً عظيماً حال بينه وبين أن يروي كبداً حرّىٰ ..

طوحّ الفتىٰ بقبضة الماء ... ثم أدخل يديه في القيود فعاد مغلولاً .

هتف الدليل مأخوذاً بما يرىٰ :

ـ ألست ظامئاً يا سيدي ؟

ـ أجل .

ـ فلِمَ لا تشرب إذن ؟

ـ تذكرت ظمأ الحسين ... وعطش أطفال صغار ... و .. تساقطت الدموع من عينيه فولّىٰ وجهه شطر نخلة ميساء؛ وانبثق عند جذعها شلال من الصلاة .

19

بدت دمشق ذلك الصباح عجوزاً تتصابىٰ لم تترك من دهون الزينة لوناً إلّا طلت وجهها به.

تجمهر الدمشقيون عند باب «الساعات».

ثلاث مرّات أخرجت الحية النحاسية رأسها المثلث اسقطت ثلاث حصاة في الاناء النحاسي، وكان غراب من نحاس يشير إلىٰ الوقت دون اكتراث.

وأطلّت القافلة أخيراً. كان رأس آخر الاسباط في ذروة رمح طويل يتقدّم أعجب موكب في التاريخ.

تطلّع رجل عجوز إلىٰ فتىٰ القافلة الوحيد وهتف ببلاهة المخدوعين:

ـ الحمد لله الذي أهلككم وأمكن أمير المؤمنين منكم.

نظر الفتى اليه وخاطبه بإشفاق:

ـ أقرأت القرآن يا شيخ؟

ـ أجاب العجوز مأخوذاً:

ـ أجل .

ـ أوجدت فيه هذه الآية «قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ» ؟

ـ نعم .. ماذا تعني ؟

ـ نحن القربىٰ يا شيخ .. فهل قرأ : «انما يريد الله ليـذهب عـنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا» ؟

ـ نعم قرأتها .

ـ نحن أهل البيت يا شيخ .

هتف الشيخ مأخوذاً .

ـ بالله عليك أنتم هم ؟!

ـ نعم وحق جدّنا رسول الله إنّا لنحن هم .

شعر العجوز بالأرض تدور به .. تهتز تحت قدميه .

مرّت لحظات رهيبة كانت كـافية لأن تجـتمع في أعـماقه آلاف الغيوم الممطرة فانفجرت الدموع من عينيه الكليلتين :

ـ أبرأ إلى الله ممّن قتلكم .

وما أسرع أن تخطفته الكلاب المسعورة .

وتساءلت امرأة دمشقية :

ـ من أي السبايا أنتم ؟

تمتمت ابنة للحسين وكان اسمها سكينة :

ـ نحن سبايا آل محمّد .

وأردفت وهي تتطلّع إلى رؤوس في ذرى الرماح :

ـ هذا رأس أبي وعمومتي ورجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

انعقد لسان المرأة دهشة .. وبدا لها ما تسمعه ألغاز وطلاسم .

كمن يبحث عن ظلّه في يوم غائم كان «سهل» يحثّ خطاه الى «باب الساعات». تساءل في نفسه وهو يقلّب بصره في مظاهر الزينة التي بدت مفتعلة بعض الشيء:

ـ أيكون لأهل الشام عيد لا نعرفه ؟

وسأل شيخاً مرق من أمامه :

ـ هل الناس في عيد يا شيخ ؟

تلفت العجوز وقال بصوت هامس :

ـ لعلّك غريب ؟

ـ أنا سهل بن سعد الساعدي ممّن رأى الرسول وسمع حديثه .

دمعت عينا الشيخ وقال بحزن :

ـ ماذا تقول يا صاحب رسول الله؟ الساعة سيأتون برأس الحسين ورؤوس القتلىٰ من أهل بيته .

شعر «سهل» بدويّ الانهيارات في أعماقه ... صرخة تدوّي في صدره: يا محمّد .. يا رسول الله...

بدا سهل مذهولاً وهو يتطلّع الى موكب لم يخطر في باله أن يراه يوماً ما .

كان رأس الحسين يتقدّم القافلة علىٰ رمح طويل.

كما تستيقظ الحمائم في الفجر هـبّت الذكـريات القـديمة مـلوّنة جميلة.

كان محمّد يحتضن حفيده يشبعه قبلاً، والحسين بسنيه الخمس يداعب سوالف جدّه العظيم وأصـابعه الصـغيرة تـغوص في شـعره المتموج تموّج الصحارى؛ وانبعثت كلمات تتألق مثل ندى الصـباح: حسين مني وأنا من حسين.

وجد سهل نفسه يهتف مبهوراً كأنّه قطع الصحراء:

ـ يا حسين!

وضاع صوته بين دوّي الطبول وزعقات الأبـواق تمـلأ فـضاء المدينة.

20

الطريق الى قصر الخضراء تحفّه بيارق ملوّنة حمراء وصفراء وقد اصطف مسلّحون علىٰ جانبي الطريق .. والموكب العجيب يمضي قدماً الى قصر أسس بنيانه علىٰ الظلم .

وفي بوابة القصر توقفت القافلة وجيئ بـالحبال فـربق بهـا آل الرسول، وضعوا طرفاً منها في رقبة فتىٰ في العشرين ثم في رقبة زينب بنت علي ثم في باقي بنات محـمّد، وكـلّما تـعثّر الأسرىٰ في طـريقهم انهالت عليهم السياط من كلّ جانب .

كان يزيد جالساً ينظر باستعلاء، ونشوة الإنـتصار تـطلّ مـن عينيه.

هيمن صمت رهيب لم يعهده القصر من قبل ... صمت الأسرىٰ ملأ فضاء القصر بأشياء يحسّها المرء في أعماقه .

عدّل يزيد من جلسته . كان ينتظر كلمات الاستعطاف أو كلمات تذكر بالنصر.

أراد الخليفة الجديد أن يجعل من نصره حـقيقة فـخاطب فـتىٰ

القافلة الوحيد:

ـ كيف رأيت صنع الله بأبيك الحسين ؟

وجاء الجواب صاعقاً :

ـ رأيت ما قضاه الله قبل أن يخلق السموات والأرض .

أدرك يزيد ان هذا الفتىٰ فرع من تلك الزيتونة؛ فهمس في آذان مشاوريه.

كانت العيون حمراء بلون الدماء تحمل نذر الموت ويطلّ منها حقدٌ قديم .

ـ اقتله يا أمير المؤمنين .. انّه يضمّ قلب أبيه في جوانح صدره .

فهتف الفتىٰ بصلابة الأنبياء :

ـ يا يزيد لقد أشار عليك هؤلاء بخلاف ما أشار به جلساء فرعون عليه حين شاورهم في موسىٰ وهارون فانّهم قالوا له : أرجه وأخاه ...

وأردف غير مكترث بالموت الذي يحدّق به من كلّ مكان :

ـ ولا يقتل الأدعياء أبناء الأنبياء .

وعاد يزيد مرّة اُخرىٰ يتحدّث كخليفة فقال بنفاق :

ـ ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .

أجاب الذي عنده علم الكتاب :

ـ ما هذه نزلت فينا؛ انما نزل فينا : ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك علىٰ

الله يسير لكي لا تأسوا علىٰ ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. فنحن لا نأسىٰ علىٰ ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا .

انتفض يزيد كالملدوغ وقد سقط عنه وقار مصطنع :

ـ مهلاً بني عمّنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً .

صرّ علىٰ أسنانه بحقد ولعن في نفسه ابن زياد ذلك الأحمق لأنّه نسي أن يخمد صوت الحسين .

أشار يزيد الىٰ رجل باع دينه بدنيا غيره .

نهض واعظ السلطان ورقىٰ منبراً مسروقاً، وراحت الكلمات المسمومة الملوّثة بالصديد تتدفق من فمه يحاول يطفئ الشمس والقمر والنجوم ويجعل من النفايات حدائق بنفسج، ولكن أين الثرىٰ من الثريا وأين معاوية من علي.

هتف الفتىٰ كبركان غاضب:

ـ لقد اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوأ مقعدك من النار.

والتفت الىٰ يزيد :

ـ أتأذن لي أن أرقىٰ هذه الأعواد فأتكلّم بكلام فيه لله تعالىٰ رضا ولهؤلاء أجر وثواب.

شعر يزيد بالخوف يحاصر قلبه وهتف مذعوراً :

ـ كلّا .. كلّا .

قال «معاوية» وكان فتىٰ لم يبلغ العشرين بعد وفي عينيه بريق

اكتشاف:

ـ ائذن له يا أبي .. وما قدر أن يأتي به .

همس يزيد محذّراً:

ـ ان هؤلاء ورثوا العلم والفصاحة وزقّوا العلم زقّاً .. ولا ينزل من المنبر إلّا بفضيحة آل أبي سفيان .

وعلت صيحات من الحضور وقد بهرتهم شخصية الفتىٰ :

ـ ائذن له يا أمير المؤمنين .

سكت يزيد مستسلماً .. ورقىٰ الأسير المنبر ..

يتفجّر من فوقه نبع من الفصاحة والبلاغة والحكمة وانسابت الكلمات كنهر هادئ تتدافع أمواجه متألقة في ضوء النهار :

ـ الحمد لله الذي لا بداية له، والدائم الذي لا نفاد له، والأول الذي لا أولية له، والآخر الذي لا آخرية له، والباقي بعد فناء الخلق، قدّر الليالي والأيام، وقسّم فيما بينهم الأقسام، فتبارك الله الملك العلّام.

أيُّها الناس أعطينا ستاً وفضّلنا بسبع أُعطينا: العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفضّلنا : بأنّ منّا النبيّ والصدّيق والطيار، وأسد الله وأسد رسوله وسبطا هذه الأُمّة .

أيُّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي.. انا ابن مكة ومنىٰ، أنا ابن زمزم والصفا.

أنا ابن من حمل الركن بأطراف الردا

أنا ابن خير من ائتزر وارتدىٰ

وخير من طاف وسعىٰ، وحجّ ولبىٰ

أنا ابن من حمل علىٰ البراق وبلغ به جبريل سدرة المنتهىٰ فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنىٰ، أنا ابن من صلّىٰ بملائكة السماء، أنا ابن من أوصىٰ اليه الجليل ما أوصىٰ، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابـن صـالح المـؤمنين ووارث النبيين ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين وقاتل الناكـثين والقاسطين والمارقين ومفرّق الأحزاب، أربـطهم جأشـاً وامـضاهم عزيمة .. ذاك أبو السبطين الحسن والحسين علي بن أبي طالب ..

أنا ابن فاطمة الزهراء، وسيّدة النساء. أنا ابن خديجة الكبرىٰ..

مَنْ يوقف هذا النبع المتدفق ؟ من يخمد هـذا البركـان المـتفجّر حمماً؟ من يكفّن هذه الشمس بأكوام الغيوم؟

وعندما تبكي الغيوم وتسحّ دموعها الثقال، فانّها تذوب لتسطع الشمس .. شمس الحقيقة .. وهكذا أراد ذلك الأسير العظيم.

كلماته ما تزال تدوّي:

ـ أنا ابن المرمّل بالدماء،

ـ أنا ابن ذبيح كربلاء،

ـ أنا ابن من بكىٰ عليه الجنّ في الظلماء، وناحت الطير في الهواء.

كان عرش يزيد يهتزّ بشدّة وقصره يميد ..

صرخ الخليفة بعصبية أذّنوا للصلاة .

حيلة تعلّمها من عمرو بن العاص يوم رفعت المصاحف في صفين تفادياً للعاصفة .

هتف المؤذن :

ـ الله أكبر .

عقّب الفتىٰ بخشوع المؤمنين :

ـ الله أكبر وأجلّ وأعلىٰ وأكرم ممّا أخاف وأحذر .

وانساب الاذان :

ـ أشهد أن لا إله إلّا الله .

تمتم الأسير :

ـ نعم أشهد مع كلّ شاهد ان لا إله غيره ولا ربّ سواه .

ـ أشهد ان محمّداً رسول الله .

التفت ابن محمّد مخاطباً يزيد :

ـ هذا الرسول العزيز الكريم جدّك أم جدّي ؟ فان قلت جدّك علم الحاضرون والناس كلّهم انّك كاذب وان قلت جدّي فلِمَ قتلت أبي ظلماً وعدواناً وانتهبت ماله وسبيت نساءه فويل لك يوم القيامة اذا كان جدّي خصمك .

صرخ يزيد بالمؤذن :

ـ أقم للصلاة .

وسرت همهمة وطفحت الأسئلة على الوجوه، كما تظهر الفقاعات فوق سطح ماء أصابه مسّ من الغليان .

21

غيوم الخريف تعبر سماء دمشق... تبعثرها الرياح كسفن تائهة؛ وأضحت السماء ميداناً لخيول مجنونة، أو لوحة تتراكم فيها أكوام الغيوم كما تشاء الريح تشكلت بحيرات زرقاء وتلال وخلجان لا حصر لها، وبدت غيمة بيضاء علىٰ شكل حصان ترتاد الشواطئ القطنية، غير أن الريح سرعان ما دفعتها لتذوب في أكوام الرماد، اختفت البحيرات وتراكمت جبال السحب الداكنة بعضها فوق بعض اندثرت الشواطئ الناصعة تحت أكوام الرماد والرياح الخريفية تبشّر بشتاء قارس وصقيع.

كان «المنهال» يراقب من بعيد خربة تشبه سجناً قديماً أُنزل فيها الأسرىٰ.

جلس يصغي الىٰ أول مناحة لعاشوراء في دمشق ...

كان اسم الحسين يرتفع يتألّق في الفضاء.. يتناغم مع نداء الأذان يعانق اسم جدّه العظيم محمّد.

ـ هو ذا.

هتف المنهال وقد لاح من بعيد فتىٰ القافلة الوحيد ..

وجهه المضيئ كقمر حزين ... كأنّه يحمل علىٰ كتفيه هموم الدنيا وأحزان العالم كلّه.

هرع اليه لعلّه يخفّف من أحزانه شيئاً :

ـ كيف أمسيت يا ابن رسول الله ؟

تجمّعت الدموع في عينيه كغيوم مشحونة بالمطر :

ـ أمسينا كمثل بني اسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

سكت هنيهة وأردف :

ـ أمست العرب تفتخر علىٰ العجم بأنّ محمّداً منها، وأمست قريش تفتخر علىٰ سائر العرب بأنّ محمّداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته مقتولين مشرّدين.. فإنّا لله وإنّا اليه راجعون.

وقال الرجل وهو يحاوره :

ـ أخشىٰ عليك كثرة البكاء .

أجاب الفتىٰ وهو يخترق السحب بنظرات متأملة :

ـ انما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ... ان يعقوب كان نبيّاً فغيّب الله عنه واحداً من أولاده وعنده اثنا عشر وهو يعلم انّه حيّ فبكى عليه حتىٰ أبيضت عيناه من الحزن.. وانّي نظرت الىٰ أبي وأخوتي وعمومتي وصحبي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني ... كلّما نظرت الىٰ عمّاتي وأخواتي تذكرت فرارهن من

خيمة إلىٰ خيمة.

اشتعل المشهد العاشورائي بكلّ تفاصيله ... ياله من يوم عصيب... النار المجنونة تلتهم كلّ شيء الخيام تحترق والأعمدة تتهاوىٰ حطباً ... وقد فرّ الأطفال.. قلوبهم تدق مثل حمائم مذعورة. ونسوة وفتيات يلذن من خيمة إلىٰ خيمة أُخرىٰ والنار تفتح أفواهاً شيطانية تريد ابتلاع كلّ الأشياء الخضراء.

فجأة ظهرت إمرأة تتجه نحو الستين بخطىٰ واسعة. نادت بصوت بحّ من البكاء:

-إلىٰ أين يا نعم الخلف؟

أسرع الفتىٰ اليها.

أدرك المنهال انّها زينب .. زينب التي وقفت بوجه العاصفة.

هل يكون عاشوراء خلاصة لكلّ تاريخ النبوّات في الأرض بكل الجراح، بحجم الصبر، بفورة الدماء.. وتألّق حبّات الدموع.

22

-إلى كربلاء

همس الفتىٰ في اذن الدليل، وقد انفصلت القافلة عن ديار الشام في رحلة العودة إلى أرض الحجاز.

منذ ذلك التاريخ ستصبح تلك البقعة علىٰ شطآن الفرات مقصداً للقوافل الجديدة ومحطّة لقوافل أُخرىٰ.

كان علىٰ الدليل أن يسلك طريقاً آخر غير طريق التجار وبعيداً أيضاً عن طريق البريد، حيث تمرق الخيول سريعة تحمل الأنباء الهامّة.

وانسابت القافلة مثل ظفيرة من حرير في بطون الأودية متجهة صوب «عين الوردة» أولىٰ محطّات الطريق الجديد.

بركت النوق في «عين الوردة» ثم في «قرميسيا» وبعدها «الأنبار» ثم يممت وجهها شطر بقعة علىٰ ضفاف الفرات.. بقعة ستشهد ميلاد مدينة ما تزال في مخاض الزمن.

آن «للرأس» أن يعود بعد رحلة دامت أربعين يوماً.

آن للرأس الذي طاف المدن فوق ذرىٰ الرماح أن يعود بعد أن رتّل القرآن ترتيلا.

عاد رأس السبط بعد أن أيقظ الإنسان في النـفوس الآدمـية... وفي الأرض البذور.

كان الشفق دامياًكجراح الأنبياء عندما وصلت القافلة كربلاء.

آثار الخيول ما تـزال محـفورة في الأرض والتـاريخ وفي ذاكـرة الإنسان ...

سهام مغروسة في الرمال .. سيوف مهشمة وبقايا رماد .

قفزت الحوادث الرهيبة الى الذاكـرة .. تجسّـدت في العـيون .. وتردد صداها في القلوب.

هرولت «الرباب» الىٰ كومة رمـل صـغيرة . ضـمت رضـيعها الشهيد. احتضنت الرمال الناعمة .. هتفت بقلب كسير :

ـ هلّم إليّ يا صغيري .

وتساقطت قطرات من دمع ومن لبن رسمت في الثرىٰ نقاطاً ندية صغيرة .

كان الرضيع غافياً في أحضان الأرض التي لوّنها بدمه الرائـق . وعندما هوّمت عيناها، رأت نافورة ماء تنبجس من نحر الشهيد ...

كان الأطفال يدورون بين القـبور كـحمائم بـرّية تـبحث عـن أعشاشها.

من بعيد لاح «جابر» .. رجل آزر النبي ونصره وجاء اليوم يجدّد

العهد مع سبطه.

شمّ جابر رائحة النبي فهوىٰ يقبّل قبر الحسين:

ـ يا حسين .. يا حسين .. أشهد انّك قد مضيت علىٰ ما مضىٰ عليه أخوك يحيى بن زكريا..

هتف الفتىٰ وقد تجمّعت في عينيه الدموع :

ـ يا جابر هاهنا والله قتلت رجالنا.. وذبحت أطفالنا وسبيت نساؤنا وحرقت خيامنا.

نهض جابر ينوء بحمل السنين.. أجال بصره الواهن في القبور وهتف كأنّه يخاطب التاريخ والإنسان :

ـ السلام عليكم أيتها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين وأناخت برحله .. أشهد انّكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتىٰ أتاكم اليقين.. والذي بعث محمّداً بالحقّ نبياً، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه .

قال رجل وقد اتسعت عيناه دهشة :

ـ كيف ولم نهبط وادياً ولم نعل جبلاً ولم نضرب بسيف ؟!

وتدفقت كلمات قالها محمّد ذات يوم :

ـ سمعت حبيبي رسول الله يقول : من أحبّ قوماً كان معهم ومن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم.. والذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً ان نيتي ونيّة أصحابي علىٰ ما مضىٰ عليه الحسين وأصحابه .

كانت الشمس علىٰ وشك المغيب وقد بدت حمراء كعين

تسحّ دموعاً ثقالاً .

مسح جابر وجهاً كان قد تعفّر بتراب الحسـين .. تمـتم بحـديث لحبيبه كان قد سمعه قبل أكثر من خمسين سنة، كان النبي يداعب صبياً في ربيعه الخامس ويقول: حسين مني وأنا من حسين .

هتف جابر وسط الصمت وكان الفرات يجري تتدافع أمواجه :

ـ أشهد اني قد سمعت ذلك من حبيبي محمّد .

غابت الشمس خلف الرمال المـمتدة، ونـشر المسـاء سـتائره الرمادية فوق الأرض، وانبرىٰ رجال يدقّون أوتاد خيام صـغيرة .. فزينب تريد البقاء إلىٰ جانب أخيها الحسين.

23

غادر يزيد قصر الخضراء تحـوطه كـلاب الصـيد التي مـلأت الفضاء نباحاً. ملأ رئتيه من نسمات الصباح الباردة كما لو يريد اطفاء حرقة الخمر التي ما تزال تشتعل في أعماقه، ألقىٰ نظرة اسـتعلاء مـن فوق حصانه الأسود عـلىٰ مـرافـقيه وأدار بـصره فـيهم مـتصفحاً وجوههم. وفي تلك اللحظة مرّ قـطيع هـائل مـن الخـيول العـربية الأصيلة..

راح يتابع القطيع الممتد في الأُفق وهو يتجه صوب بلاد الرومان؛ فيما وقف سفير القيصر يشرف علىٰ نقل الأتاوة السنوية المـفروضة على المسلمين إلىٰ بلاده.

هزّ يزيد كـتفيه دون اكـتراث وألهب ظـهر حـصانه بـالسياط فانطلق موكب الصيد تحفّه الكلاب من كلّ صوب.

أمعن يزيد هذه المرّة في البادية مقترباً من تخوم العـراق حـيث تكثر الغزلان.

هذه أوّل رحلة للصيد يقوم بها في خلافته فلتكن لها أُبهة الملك

وفخامة السلطان العريض، وقد آن له أن يحتفل بنصره الأول.

دبّ المساء كحشرة متلصصة وقد انتهىٰ رجاله من دقّ أوتاد الخيام.

كان يزيد يداعب قرده «قبيس». قرصه من مكان حسّاس فنزّ القرد مذعوراً، فأطلق يزيد ضحكة ماجنة أودعها شعوراً مفرطاً بأهميته.

ألقىٰ بنفسه بين الطنافس الحريرية وراح ينظر إلى آنية الخمرة المختلفة الألوان والأشكال.

أمسك بعنق ابريق ذهبي صغير وأفرغ ما فيه في جوفه.. شعر بدبيب النمل يتخلل عروق جسده ويداعب رأسه..

احمرّت عيناه.. أطلق ضحكة شيطانية جعلت «قبيس» ينظر اليه بخوف.

نشر الليل ستائره الكحلية وبدت صفحة السماء تزخر بالنجوم كمصابيح فضية أو لآلئ متناثرة في بحر شديد الظلمات.

أخذ الحرّاس مواقعهم يحرسون خيمة فيها قردة وخنازير؛ كؤوس الخمرة تدور وتدور. وبين الفينة والأُخرىٰ يعلو صوت قرد أو ضحكة ماجنة، والليل ظلمات يتراكم بعضها فوق بعض؛ والنجوم تشتدّ سطوعاً تبشّر بفجر قريب.

كلّ شيء يمضي علىٰ سنّة الناموس إلّا ما يفعله ابن آدم منذ سوّلت لقابيل نفسه قتل أخيه.

استيقظ يزيد بل هبّ مذعوراً. منذ أيام والكوابيس تلاحقه ..
فتح عينيه الداميتين وغادر الخيمة مترنّحاً.
كانت الشمس على وشك أن تشرق بحمرتها القانية، فـالشفق مضمخ بلون يشبه الدماء.
هتف أحدهم وقد رأىٰ صاحبه يريد إعادة صلاته .
ـ ماذا تفعل ؟!
ـ لقد نسيت لعن أبي تراب في القنوت .
ـ أوه .. انّها لا تقبل منك .
قهقه يزيد وهو ينتبذ مكاناً قريباً لقضاء حاجته .
أرسلت الشمس أشعتها الخريفية الواهـنة، فـبدت الفـلاة مـدّ البصر شفافة.
امتطىٰ يزيد صهوة الحصان وألقىٰ نظرة افتراس قبل أن يـلهب ظهر الجواد بالسوط معلناً بداية الجولة.
بدا وجهه المجدور في أشعة الشمس مقيتاً كحيوان متنمّر.
أمعن يزيد في البادية جنوباً والكلاب خلفه تملأ الفضاء نباحاً .
وشيئاً فشيئاً خفّ صوتها ولم يبق إلّا صدىٰ سـنابك الحـصان وهـو يطوي المسافات الطويلة .
ظهرت شجيرات صغيرة إلى جانب ربوة؛ شدّ زمـام الحـصان بعنف، ولوىٰ رقبته باتجاهها، راح الحصان يخطر ببطء.
ألقىٰ يزيد نـظرات مشـتعلة تـلهب المكـان وأرهـف أُذنـيه الىٰ

خشخشة الأشواك، فجأة ظهرت ظبية مذعورة ومعها صغيرها وقد بدا غير مكترث لما يرىٰ.

استلّ يزيد سهماً ووضعه في كبد القوس، ضيّق إحدىٰ عينيه وجعل امتداد النصل فيما بين عيني الظبية؛ ثم عدل عن فكرته. نقل اتجاه النصل إلىٰ الصغير واختار أسفل رقبته الصغيرة، أفلت السهم فانطلق يشقّ طريقه الثاقب في الهواء الى رقبة الصغير الذي تراخت قدماه الاماميتان فهوىٰ جانباً فوق الأرض.

سدّد الصيّاد سهماً آخر صوب الأم التي فرّت مذعورة خلف الربوة ثم اتخذت طريقها في بطن الوادي ممعنة في الفرار.

ألهب الصياد ظهر حصانه مطارداً فريسته خلال الوادي.

فجأة كفّ عن المطاردة وعاد أدراجه الىٰ حيث هوىٰ الصغير يعالج جرحه النازف.

كمن الصياد خلف شجيرات الشوك بعد أن ربط حصانه في مكان قرب الربوة وظلّ يترقب.

كلّ شيء كان هادئاً ما خلا نسمات رقيقة تداعب الشجيرات الشوكية المتناثرة هنا وهناك.

ظهرت الظبية من بعيد تخطو باتجاه الصغير خائفة تترقّب؛ حرّكت أُذنيها تمسح المكان وحدّت عينيها الحوارويين تستكشف الخطر.

كان الصغير يدعوها .. فراحت تقترب رويداً رويداً .. راحت

تمسح الجرح برفق.

وضع الصيّاد القاسي سهماً في كبد القوس وسـدّد بـاتجاه عـين حوراء.

نبت السهم الغادر في العين فانطفأت وانكفأت الظبية الى الوراء وقد أصابها مسّ من الجنون يكشف عن حجم الآلام الرهـيبة التي تفجّرت في رأسها.

كان الصياد يراقب منتشياً فريسته التي راحت تدور في الأرض قبل أن تسقط إلىٰ جوار صغيرها الذي ودّع الحياة هو الآخر.

في المساء تصاعدت رائحة الدخان ممـتزجـة بـرائـحة الشـواء وعلت قهقهات رجل ينهش متلذذاً اللحم المشوي ويكرع كـؤوس الخمر.

24

الصحراء مد البصر بتموجات الرمـال وخشـخشة الأشـواك. والقافلة التي حطّت رحلها ثلاثة أيام في كربلاء تـنساب في بـطون الأودية في طريقها إلى المدينة المنورة من أرض الحجاز.

قافلة عجيبة أُريد لها أن تصحح مسار الإنسان.. ليس فيها الآن إلّا نسوة وأطفال وفتىٰ وحيد قد ذرّف على العشرين.

انّها تشقّ الطريق صوب وطن فارقته مذعورة وتعود اليه اليوم مقهورة.. تترك آثارها في المحطات المتعاقبة وفي التاريخ.

كان لها موقف في «عـذيب الهـجانات» وفي «الرهـيمية»، وفي «البـيضة» وفي «شراف» وفي «بـطن العـقبة» وفي «الشـقوق» وفي «الثعلبية» وفي «زرود» وبعدها في «الخزيمية» ثم في «الحـاجر» وفي «ذات عرق» وفي كلّ المواقف التي مرّت بها القافلة يوم رام الحسين تصحيح مسار التاريخ البشري.

ولما وصلت القافلة قريباً من «ثنيات الوداع» ألقت برحلها.

التفت الفتىٰ إلىٰ رجل كان قد التحق بالقافلة في عرض الطريق:

ـيا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعراً فهل تقدر على شيء منه؟
أجاب ابن حذلم :
ـبلىٰ يا ابن رسول الله اني لأقول الشعر .
ـأدخل المدينة اذن وانع أبا عبدالله .
انطلق الفارس صوب المدينة بشيراً ونذيراً وإلى جانب المسجد انطلقت صرخة هزّت المدينة والإنسان والتاريخ :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها .
قُتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج
والرأس من فوق القناة يدار

إن هي إلّا صيحة واحدة فاذا هم من البيوت الىٰ المسجد ينسلون.
هتف أحدهم مدهوشاً :
ـماذا وراءك ؟!
صاح الفارس كأنّه يخاطب العالم بأسره :
ـهذا علي بن الحسين مع عمّاته واخواته قد حلّوا بساحتكم وأنا رسوله اليكم أعرّفكم مكانه .
طفحت أسئلة متعجبة .. خائفة .. قلقة :
ـوالحسين والرجال ؟!

ـ لقد قتلوا جميعاً صرعتهم القبائل والرماح .. والظمأ ..

ـ أين ؟!

ـ على شطآن الفرات في أرض تدعى كربلاء.

خرج أهل يثرب إلى عرض الصحراء كأنّهم يلبّون نداءً من وراء ستار الغيب.

نهض الفتى ينوء بنفسه تخنقه العبرات وتضبّب رؤيته الدموع .. وضع له كرسي خارج الخيمة فتهالك فوقه، يستقبل آلاف الكلمات المعزّية. كانت المدينة تبكي، الأرض والحجارة، وقلب الإنسان.

آن للمدن أن تغسل اثمها وعارها، آن للأرض أن تطهّر ثراها، وآن للإنسان أن يقول كلمته.

أومأ نجل الحسين إلى الناس أن اسكتوا فلما اشرأبت الأعناق قال:

ـ الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين بارئ الخلائق أجمعين. الذي بعُد فارتفع في السماوات العلى، وقرب فشهد النجوى. نحمده على عظائم الأمور وفجائع الدهور، وألم الفجائع ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء. ان الله تعالى وله الحمد ابتلانا بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة.

سكت الفتى هنيهة ليروي روح الملحمة :

ـ قتل أبو عبدالله الحسين وعترته، وسبيت نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان.

وأردف معلناً نهاية زمن الفرح وبداية حزن الإنسان:

ـ فأي رجالات منكم يسرّون بعد قتله؟ أم أي فؤاد لا يحزن من أجله؟! أم أيّة عين منكم تحبس دمعها وتضنّ عن إنهمالها ؟!

لقد بكت السماوات الشداد لقتله

وبكت البحار بأمواجها. والأرض بأرجائها

والأشجار بأغصانها. والحيتان في لجج البحار

والملائكة

وانهمرت الدموع غزيرة كسماء حزينة توشك أن تقول:

ـ وبكاه الإنسان.

بركت النوق عند مسجد النبي توقظ في الذاكرة يوماً بركت فيه «القصواء».

هتفت زينب وهي تأخذ بعضادتي المسجد:

ـ يا جدّاه! إني ناعية إليك أخي الحسين.

وصاحت سكينة:

ـ ياجدّاه إليك المشتكىٰ مما جرىٰ علينا .. فوالله ما رأيت أقسىٰ من يزيد ولا رأيت كافراً ومشركاً شرّاً منه وأجفىٰ ولا أغلظ.. كان يقرع ثغر أبي بمخصرته ويقول: كيف رأيت الضرب يا حسين.

تساءل رجل بشماتة:

ـ من الغالب ؟

فأجاب فتى الحسين يعلّمه سرّ النصر ومعنىٰ الإنكسار:

ـ إذا دخل وقت الصلاة فأذّن وأقم تعرف الغالب .

وسكت الرجل الشامت لا يدري ما يقول .

25

عندما ينهار السدّ يتحوّل الماء الهادئ إلى سيل تفقد الأشياء فيه استقرارها وثباتها، فالأرض تهتز تحت الأقدام أصابها زلزال والبحر أمواج غاضبة، والسماء مكفهرّة مخزونة بالبرق وبالرعود. لم يعد هناك شيء ثابت، كلّ الأشياء تهتز بشدّة. أصابها مسّ من الجنون. لم يعد هناك معقول ولا غير معقول، كلّ شيء مستباح أمام خيول الغازي يزيد.

هتف ابن غسيل الملائكة وقد التفّ حوله أهل يثرب :

ـ أخشىٰ أن تمطرنا السماء بالحجارة ... انّه رجل يـنكح أُمـهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر حتىٰ يدع الصلاة .

همس أحدهم متأسفاً :

ـ وقتله الحسين سبط محمد وسبي نسائه وعياله من بلد إلىٰ بلد .

قال ابن حنظلة :

ـ أجل والله لأُقاتلنَّ حتىٰ لو لم يبق معي أحد .

كانت السماء تنوء بغيوم شتائية والرياح تهبّ من ناحية الشمال؛

والأرض حبلىٰ بالحوادث، والأنباء تترىٰ عن جيش قوامه ثلاثون ألف شامي يزحف باتجاه المدينة المنورة يحمل في طواياه الويل والثبور.

الغيوم السوداء تعبر السماء كسفن تعصف بها ريح غاضبة.

يثرب تستعد للمواجهة وقد انبرى الرجال لحفر الخندق من جديد فالأحزاب قادمون؛ وانطلق رجال من أهل المدينة إلى مناهل المياه في طريق الشام يملأونها قطراناً فقد يعرقل ذلك اندفاع القوّات الزاحفة.

قال أحدهم وهو يفكّر في لحظة المواجهة:

ـ وبنو أُمية في المدينة. انّهم خطر يهدّدنا في كلّ ساعة، عددهم يربو علىٰ الألف.. فماذا نفعل؟

أجاب آخر:

ـ نجليهم عن ديارنا.

ـ إذن سوف يدلّون العدوّ على نقاط الضعف في المدينة.

ـ نأخذ عليهم العهد والميثاق.

ـ ومتىٰ كان هؤلاء يعرفون للعهد حرمة وللمواثيق إجلالاً؟

ـ ليس أمامنا إلّا أن نقتلهم أو الجلاء.

ـ الجلاء أفضل إذن.

وصلت الجيوش «وادي القرىٰ» وكانت السماء تبكي بصمت.

قال قائد الجيش وكان مسرفاً لابن عثمان:

ـ ماذا وراءك وأشر عليّ.

ـ لا أستطيع، قد أخذ علنيا العهد والميثاق أن لا ندلّ علىٰ عورة أو نظاهر الغزاة.

شعر المرّي بالحقد يعصر قلبه :

ـ لولا أنّك ابن عثمان لضربت عنقك .. اخرج .

والتفت إلى ابن مروان وقال بجفاء :

ـ هات ما عندك .

أجاب ابن مروان وقد تحفّز في أعماقه «الاسخريوطي»

ـ نعم أنا أدُلّك ..

وأردف وهو يشرح له خطّة الغزو :

ـ انطلق بالجيش إلى «ذي نخلة» لتكون في مكان تحشد فيه جنودك فاذا طلع الفجر اجعل المدينة علىٰ يسارك ثم در بها حتىٰ تصل «الحرّة» في جهة الشرق، ثم ازحف عليهم مع شروق الشمس.

نظر المرّي إلى ابن مروان متفحصاً وعيناه الكليلتان تسألانه عن جدوىٰ ذلك.

قال حفيد الزرقاء مستأنفاً :

ـ فاذا أشرقت الشمس فستكون في خلف جيشك وفي عيون المدينة وستؤذيهم فلا تجعلهم يرون سوى بريق السيوف والرماح تبهر عيونهم وتلقي الوهن في قلوبهم.

صفّق قائد الجيش متحمساً :

ـلله أبوك أي امرئ ولد !

أشرقت الشمس ذلك اليوم حمراء حمراء كعين حمئة، وقد انقشعت السحب فاذا السماء زرقة صافية كبحر فيروزي اللون.

نهضت ثلّة من المهاجرين وثلّة من الأنصار، ولكن أنّى لهؤلاء الوقوف بوجه الطوفان القادم من دمشق.

واشتعلت المعارك وبدت السيوف وسط الغبار. بروق تتقاتل في الأرض، وأضحت «الحرّة» معراجاً للأرواح التي اختارت الحرّية، وكانت أسراب الجراد تفتك في حقل مليئ بسنابل خضر. وقبل الغروب انهار السد البشري وردم الخندق فاذا مدينة محمّد في مهب اعصار فيه نار.

26

أكثر من عشرة آلاف فارس وأكثر من خمسة عشر ألف من المشاة يتدفقون صوب المدينة بعد أن أعلن قائد الغزو :

ـ انها مباحة لكم ثلاثة أيام .

برقت في العيون الجائعة آلاف الرغبات وتأججت في النفوس الدنيئة حمّىٰ الشهوات؛ ياليالي السلب والنهب والرغبات المجنونة في أحضان العذارىٰ، قطعان الذئاب تتدفّق صوب يثرب كطوفان مدمّر.

السيوف الشامية تحصد آلاف الرؤوس؛ كلّ شيء مستباح ؛ الدماء تلوّن صعيد الأرض الطيبة، واستغاثات مقهورة ترتفع من حنايا البيوت والمساجد .

ـ يا محمداه ... يا نبي الله ..

الخيول المجنونة تدور في الأزقة والسكك بحثاً عن الذهب والفضة وعذارىٰ المدينة.

هناك في أعماق النفس البشرية خنزير قابع مغلول بالسلاسل؛

ولكن الشيطان قد يتسلل في غفلة الإنسان فيحطّم تلك القيود وعندها يقفز الخنزير يعربد ويدمّر وينتهي الإنسان.. ربما يقتله الخنزير أو يصرعه أو يوثقه الاكتاف.

وهكذا كان..

يوم هوى الحسين فوق الثرى ونام، وثب الخنزير المصفّد بالسلاسل والأغلال، وثب مجنوناً وراح يرقص رقصة الحرب والغزو تتأجج في عينيه الشهوات وتبرق في رؤاه الاسلاب، هاهي الخيول الغازية تعبر جثة الحسين وتنطلق لاستباحة العالم.. لم تبق هناك من حرمات فالكلّ مستباح.

كانت صبيّة تركض.. مبهورة الأنفاس يُطاردها ذئب.. تعثّرت.. وقعت على الأرض.. نهضت رغم جراحها هرولت كظبية يطاردها صياد دنيء..

اشتعلت في أعماق الذئب حمّى الشهوات. برقت عيناه كأفعىٰ.. طاردها عبر بوابة مسجد النبي لم يطرف له جفن...

لاذت الصبية وراء قبر الرجل السماوي.. لاحقها وهو يلهث... لجأت الى المحراب... ولكن الذئب لم يعد يرىٰ شيئاً، جذبها من ظفيرتها.. افترشها.. انتزع منها أعظم كنز تملكه العذارىٰ... ولم ينس وهو يقوم عنها أن ينتزع أساور من ذهب وفضة.. لم تعد ذات قيمة في نظر الفتاة، فتركته يفعل ما يشاء.

جثم صمت مخيف فوق المدينة الحزينة وقد غادر الجنود إلى

معسكرهم يحملون الأسلاب .

كان يسير يهزّ الأرض بقدميه الغليظتين يكاد يحرق بـنظراتـه المشتعلة الأبواب والكوىٰ وجـدران البـيوت الطـينية. سمـع وهـو ينعطف باتجاه الشمال بكاء طفل رضيع. تسمّر .. نهض الخنزير عـلىٰ قوائمه الأبع .. رفس الباب. وجد امّاً صغيرة..

كانت جالسة وسط الحجرة وقد تـبعثرت حـولها الأشـياء ... المنظر ينم عن مرور الجنود منذ ساعة .

صرخ الجندي الغليظ :

ـ هات ما عندك .

قالت الأُم الصغيرة :

ـ ما تركوا لي شيئاً ... سلبوني كلّ شيء .

اشتعل الحقد في أعماقه .. وتأججت شهوته وهو يكـاد يـلتهم ثديها بنظراته.. جذب الرضيع بقسوة ولطشه بالجدار...

كانت الأُم الصغيرة كالعصفور بين يديه ...

لم يجد معها ذهباً ولا فضة فأخذ منها شيئاً آخر وغادر البيت.. وفي هذه المرّة كان الطفل ساكتاً واُمّه تبكي ... تبكي كلّ الأشياء... كلّ الأشياء العزيزة التي فقدتها في لحظة من ليل الذئاب .

الرؤوس تتساقط كنجوم منطفئة؛ كان قائد الغزاة يتوعد ويهدّد ويشتم بعد أن أمر بإلقاء القبض علىٰ «علي بن الحسين» ذلك الفـتىٰ الذي أنجاه الله من قبل .

وجاءوا بالفتى الذي يحمل في وجهه سيماء النبوّات . الصلاة تنساب علىٰ شفتيه.. كان يتمتم بخشوع :

ـ اللّهم ربّ السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن .. ربّ العرش العظيم.. ربّ محمد وآله الطاهرين.. أعوذ بك من شرّه وأدرأ بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره وتكفيني شرّه .

الذين حضروا اللقاء كانوا يدركون انّها النهاية ولسوف ينقطع نسل الحسين إلىٰ الأبد... ولكن ماذا حدث لكي ينقلب الموقف. فاذا الذي كان يتوعد ويهدّد، والرؤوس تتساقط بين يديه دون أن يطرف له جفن ، ينهض بإجلال للفتىٰ القادم بل يقوده بنفسه ليجلسه علىٰ سريره ..

وفغر الذين حضروا اللقاء أفواههم دهشة وقد سمعوا الرجل الذي لا يعرف حرمة للدماء الآدمية يقول للفتىٰ :

ـ سلني حاجتك يا أبا محمد .

قال الفتىٰ بحزن :

ـ أسألك أن تكفّ السيف عن قتل الناس .

أطرق القائد موافقاً .

قال المرّي متودداً :

ـ لعلّ أهلك فزعوا .

أجاب ابن الحسين :

ـ أي والله .

هتف قائد الجيش :

ـ أسرجوا له دابّته ..

وأردف مخاطباً الفتىٰ :

ـ لو كان عندنا شيء لوهبناك .

قال الفتىٰ وهو يستوي فوق دابّته .

ـ ما أعذرني للأمير .

وانطلق الفتىٰ .. بعد أن أوقف مسلسل القتل وطاحونة المـوت فتنفس الناس الصعداء.

27

كمن يجمع الثمار المتساقطة من شجرة تعصف بها الريح من كلّ مكان، كان «ابن الزبير» يراقب ما حوله ويجمع حوله الغاضبين على «يزيد»؛ بينما شجرة الاسلام تهتز من الجذور.

كان «المختار» قد وصل حديثاً بعدما أُطلق سراحه في الكوفة؛ رجل دفعته الأقدار لمساندة «ابن الزبير» لا لشيء سوى الثورة على الظلم والانتقام من قتلة أولاد الأنبياء.

بدا ابن الزبير سعيداً بتحالفه مع المختار، هتف ابن الزبير بحليفه الجديد:

ـ هيا بنا إلى طريق القوافل ... لقد بعثت من يأتيني بالأخبار.

قال المختار وهو يحدّق في الأفق البعيد حيث تلتقي السماء بالأرض:

ـ أرى فارساً قادماً من بعيد.

ـ أجل انّه هو.

مرّت لحظات يحسبها المنتظرون ساعات طويلة كان صدى

سنابك الحصان يرتفع شيئاً فشيئاً والغبرة تـقترب رويـداً حـتىٰ إذا أصبح علىٰ خطوات كبح الفـارس جمـاح حـصانه وهـتف مـبهور الأنفاس :

ـ دخل الجيش المـدينة واستباحها ثلاثة أيام وقتل أكـثر مـن عشرة آلاف من أهلها.. وعرض النسوة للبيع في الأسواق.

عضّ المختار علىٰ نواجذه غضباً :

ـ اللعنة على المرّي .. لم أرَ أكثر منه جرأة على الدماء .

قال الفارس :

ـ انتقم الله منه... مات بعد مغادرة المدينة وعـيّن عـلىٰ الجـيش «الحصين بن نمير» وأوصاه بالفتك بأهل مكة .

تمتم «ابن الزبير» :

ـ الحصين لا يحتاج إلى من يوصيه ، انّه لا يقلّ قسوة عن أسياده .

التفت المختار إلى صاحبه :

ـ ماذا تنوي أن تفعل ؟

ـ نعتصم بالحرم فربما تردعهم حرمة الكعبة .

ـ ولكن هؤلاء لا يقيمون للكعبة وزناً !!

ـ سوف نرىٰ .. كما انّه ليس بمقدورنا أن نفعل شيئاً آخر .

وتمرّ الأيام ثقيلة مريرة، وليالي مكّة تموج بالقلق والهمّ والترقب، والسماء تنوء بسحب سوداء كتلال من الدخان .

وصلت الجيوش الغازية، وأخذت مواقعها فوق رؤوس التلال

المشرفة وعلىٰ سفوح الجبال .

الجنود ينقلون المنجنيقات لتأخذ مواقعها في القمم استعداداً لقصف المدينة التي بدت ذلك الصباح القاتم مقفرة تماماً .

كان «الحصين بن نمير» قائد الغزو يتطلّع الى مكّة وقد بدت الكعبة في فنائها كشيخ يتعبّد وحيداً.

نظر إلى المنجنيقات الهائلة والىٰ كتل الحجارة المنقوعة بزيت النار.. كلّ شيء ينتظر اللحظة الفاصلة.

لوّح ابن نمير بسوطه في الهواء معلناً بداية المعركة وهتف بحماس :

ـ اقصفوهم بالمجانيق .

وانهمرت كتل نارية علىٰ بيوت المدينة وكان خط النار يقترب شيئاً فشيئاً من أول بيت وضع للناس ... بيت بناه إبراهيم وإسماعيل.

كانت خطّة الاحتلال تقضي بدكّ المدينة بالمجانيق ثم اقتحامها بسلاح الفرسان تساندهم قوّات المشاة.

كانت حدّة القصف تتصاعد وعينا القائد تشتعلان حقداً .

حاول ابن الزبير بثّ الخلاف في صفوف الغزاة. فأصدر أمراً بالاعتصام بالحرم.

كانت كتل النار تهوي في وادٍ غير ذي زرع؛ زعق ابن نمير وهو يرىٰ فتور القصف :

ـ اقصفوهم بشدّة .

هتف جندي :

ـ انّهم يعتصمون بالكعبة ؟!

ـ اقصفوا الكعبة اذن ... أيها الأحمق .

وأردف مبرّراً :

ـ نحن ننفّذ أمر الخليفة .. هل تفهم ؟

كانت كتل النار تنفجر في باحة الحرم .. تتشظىٰ .. وشبّت النار في جدران الكعبة، وكانت السماء تشهد اصطكاك الغيوم فاشتعلت البروق وضربت الصواعق منجنيقاً فأحرقته مع جنود كانوا حوله.

أراد ابن نمير حسم الموقف بدفع فرسانه وأعقبهم بالمشاة .

دارت معارك ضارية في الحرم ، وقد شوهد المختار يقاتل ببسالة وهو يهتف في جنوده :

ـ دافعوا عن بيت الله .

وفي ذرىٰ التلال كان ابن نمير يتلقىٰ نبأ وصله توّاً من دمشق :

ـ لديّ نبأ هام أيُّها القائد .

ـ تكلّم !!

لقد توفي الخليفة .

بلع القائد ريقه وحشرج بصوت مكتوم :

ـ ماذا تقول ؟! .. اكتم الخبر ما استطعت .

غير ان خبراً كهذا لا يمكن اخفاؤه .. لكأن روح الشيطان تتراجع منذ اللحظة التي ذهب فيها يزيد الىٰ مصيره المجهول في رحلة صيد.

28

ما أسهل على المرء أن يهدم ويدمّر، وما أيسر أن يجتث شجرة معمّرة من جذورها، ولكن ما أشقّ البناء، انّه يحتاج إلىٰ فكر وتأمّل وتدبّر فالبناء تحكمه قوانين وزراعة الأشجار تحتاج إلى صبر.

البناء بصيرة وفكر وتأمل، والعدم قوّة عمياء تتخبط كيف تشاء. انها محنة البناة في زمن التداعيات.. في زمن الانهيارات التي لا يوقفها شيء.

لقد اختفت الروح التي كانت تحرّك التاريخ وتصنع الانسان واستيقظت الغرائز لا .. بل انطلقت مجنونة في زمن انطفأت فيه الشمس، فاذا ليل الجزيرة ينوء بظلمات بعضها فوق بعض.

وبين الفينة والأُخرىٰ تتألّق حلقات من ضوء تستمد جذوتها من روح مشتعلة في كربلاء.

هناك وعلىٰ شاطئ الفرات جرح يفور يتحدّث بلغة عجيبة.

تبثّ الأرض أسرارها، والنفوس المقهورة تحلم بحياة أفضل.

التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك.

فرّ الأرقط الى الشام تاركاً العراقين خلف ظهره؛ تطارده روح الحسين.

الثمار تتساقط في قبضة «ابن الزبير» خليفة الحجاز والعراق ومصر وأجزاء من الشام؛ وقد شبّت النار في داخل البيت الأُموي، وابن الزرقاء يستولي على دمشق عاصمة الشام ويسترد مصر، ثم يموت مخنوقاً في فراشه، خنقته أُم خالد التي تزوّجها بعد هلاك يزيد!!

كان عبد الملك جالساً يقرأ القرآن عندما بُشر بموت أبيه والخلافة... مرّت لحظات صمت ثم أطبق المصحف وتمتم مخاطباً كتاب السماء :

ـ هذا فراقٌ بيني وبينك .

وكشّر الخليفة الجديد عن أنياب حادة وبدأ حربه من أجل استعادة الملك ... فكان الأرقط قائده الأول في حملة لإستعادة الأرض العراقية، وتحرّك جيش قوامه ثمانون ألف .

وفي الكوفة استيقظ الآلاف من خدر قديم وأعلنوا توبتهم من إثم ارتكبوه قبل سنين. وكان «سليمان بن صرد» رجل خزاعة زعيماً للتوابين، واشتعلت الثورة في النفوس والتهبت الضمائر وتحرّك أكثر من أربعة آلاف انتحاري صوب كربلاء كعبة الأحرار في العالم؛ لتشهد تلك البقعة من دنيا الله أعظم مناحة في التاريخ، فالثورة دماء ودموع، سيوف وضمائر ملتهبة، أفكار ونفوس تتأجّج بغضب سماوي. وهكذا ولد الحسين من جديد سيفاً.. قرآناً.. صهيلاً مخزوناً

من لحظة عاشوراء .

المعارك تشتعل في كلّ مكان وقد غـادرت السـيوف أغـمادها ولكن هناك معركة في مـيدان عـميق... مـعركة في داخـل النـفس البشرية لم يحسم الصراع فيها بعد.

منذ هزيمة الروح في شاطئ الفرات بصفين .. مـنذ ذلك التـاريخ والضمير المثقل بالخَدر يعاني حمّى الانتفاض ، ولقد انبعثت نـافورة الدماء بكربلاء لتطهّر النفوس وتبعث الحياة في الرماد. في لحظة تشبه يوم القيامة في لحظات المعاد.

وهكذا أراد الحسين ... رسم بدمه مـلحمة المـوت مـن أجـل الحياة، والفارس الذي حطّم جدار الزمن مايزال يقاتل.

أصداء صهيل في عاشوراء تدوّي في النفوس .. تنتزع من قلب الشتاء الربيع، ومن رحم الموت الحياة؛ ومن أجل هذا كـان عـلي لا يفتأ يبكي أباه.

الدموع ينبوع يغسل القلوب .. يـطهّر الضمائـر مـن كـلّ أدران الحياة.. وعندها ينبعث الحسين .

29

غادر «المختار» الحجاز عائداً إلىٰ الكوفة يحمل في أعماقه غضب الثورة.

وفي الكوفة اجتمع «الأشراف» إلى الأمير «عبدالله بن مطيع» حاكم الكوفة من قبل «ابن الزبير».

تمتم عمر بن سعد محذّراً:

ـ أيُّها الأمير! ان المختار أشدّ خطراً من «سليمان بن صرد». ان سليمان قد خرج من الكوفة لقتال أهل الشام أما المختار فانّه يستعد للوثوب في الكوفة.

وهمس «شبث بن ربعي»:

ـ أرىٰ أن تودعه السجن أيّها الأمير...

وأردف وهو يحكّ ذقنه:

ـ من الأفضل أن نتغدىٰ به قبل أن يتعشىٰ بنا.

أجاب الأمير وكان يتهيب اعتقال المختار:

ـ لا تخشوا شيئاً .. فرجالي يراقبون كلّ شيء.

تساءل شبث :

ـ حتىٰ تردد «ابن الأشتر» علىٰ منزل المختار؟!!

صوّب الأمير نظرات متسائلة :

ـ ماذا تعني ؟

ـ أيّها الأمير .. أرىٰ أشباحاً تتسلل في الظـلام.. وأرىٰ رجـالاً يشترون السلاح في ضوء النهار .

ـ وهل في هذا ما يُخشىٰ.. ثم ان المختار كان يحـارب الى جـانب «ابن الزبير» في مكة..

ـ كلّ هذا صحيح ولكن المختار يضمر الانتقام ممّن شارك في قتل الحسين .

تثاءب الأمير وتململ في جلسته . لقد مرّ شطر طويل من الليل .. نهض متثاقلاً وسأل :

ـ ألا تنصرفون إلى بيوتكم ؟!

تبادل الجلوس نظرات قلقة .

قال ابن سعد بلهجة فيها استعطاف :

ـ إن أذن لنا الأمير أمضينا الليلة في القصر.

واستدرك :

ـ والليالي المقبلة أيضاً .

همس شبث بقلق :

ـ النوم لا يزورني في البيت ... وكيف يغمض لي جفن وأنا أسمع

خطىٰ تجوس في الظلام.

ألقىٰ الأمير نظرة استخفاف وغادر المكان.

خيّم صمت ثقيل.

قال«الأبرص» الذي ظلّ ساكتاًكلّ ذلك الوقت:

ـهل سمعتما أخباراً جديدة؟

ـجاء رسول من المدينة يحمل كتاباً من «محمد ابن الحنفية» إلى المختار.

ـماذا كان فحواه يا ترىٰ؟!

ـمهما كان فان المطلوب هو رؤوسنا.

نظر ابن سعد حواليه بحذر وقال بصوت خافت:

ـلا تنسوا ان «ابن زياد» قادم علىٰ رأس ثمانين ألفاً من جنود الشام.

ـوهل تعتقد انه سيغفر لنا بيعتنا «لابن الزبير»؟

ـانّه يعرف ـرأينا جيّداً ولن يجد أفضل منّا أعواناً له.

نهض الثلاثة وأخذوا طريقهم الى سلالم تؤدي الى سطح القصر ...

كانت السماء مرصعة بالنجوم ونسمات باردة تهبّ برفق.. وصمت ثقيل يغمر الكوفة ما خلا سنابك خيل الدوريات وهي تجوب أزقّة المدينة الغارقة في الظلام.

30

مثلما تشبّ النار في أكوام التبن، اشتعل حريق الثورة في الكوفة مدينة من رماد في طواياها جذوة نار أوقدها رجل هوىٰ علىٰ شاطئ الفرات ككوكب درّي.

دوّت شعارات الثورة في ليلة خريفية عاصفة ... واستيقظ النائمون علىٰ صيحات الثائرين: يا لثارات الحسين.

وفرّت الرؤوس المطلوبة، وتساقط بعضها كما تتساقط الثمار الفاسدة.

سقط رأس ابن سعد، فيما فرّ شبث الى البصرة إلى أحضان ابن الزبير، وفرّ أثره الأبرص لا يلوي علىٰ شيء.

وانطلقت خيول عربية تبحث عن الذين كفروا انّهم لا ايمان لهم.

أحاطت الخيول بخيمة في «الكلتانية» وخرج الأبرص مرعوباً بيده رمح.

حانت لحظة القصاص؛ وسقطت ثمرة فاسدة، وعادت الخيول تزفّ البشرىٰ إلى القلوب المقهورة.

طارت الأنباء إلى المدن القريبة والبعيدة كفراشات ملوّنة تبشّر بالربيع.

كان «قصر الامارة» الذي شهد آلاف الجرائم قد حوّلته الثورة الىٰ محكمة كبرىٰ للاقتصاص من المجرمين.

دخل المنهال الذي عاد توّاً من رحلة الحج قصر الامارة يـبلغه تحيات أهل بيت مقهور.

كان الجنود يجرّون رجلاً تكاد حدقتاه تفرّان رعباً.

نظر المختار إليه بغضب:

ـ أنت حرملة بن كاهل؟

ـ أجل.

قال بلهجة ساخرة:

ـ إذن حدّثنا عن شجاعتك يوم «الطف».

أطرق الرجل الفأر رأسه:

ـ كان الحسين يحمل طفله الرضيع ويطلب مـن الجـيش قـطرة ماء.. فلقد جفّ لبن أُمه من العطش والظمأ والحصار.

ـ وهل سقيتموه.

ـ كلّا.

ـ ألم يكن معكم ماء؟

ـ كان الفرات يموج بالمياه.

ـ ماذا فعلت يا رجس؟

ـ من بعيد بدت رقبة صغيرة تتألّق في الضوء، كانت ناصعة كالقطن. وضعت سهماً في كبد القوس. كان السهم حاداً نفّاذاً ذبح الطفل من الوريد إلى الوريد.. وهكذا أراد ابن سعد.

ـ ماذا صنع الحسين في تلك اللحظة ؟

ـ نظر إلى الطفل ثم ملأ كفّه من الدماء المتدفقة ورمىٰ بها نحو السماء.. وهتف بصوت سمعه الكثيرون ..

ـ ماذا قال يا وغد ؟

ـ كان ينظر الى السماء وكأنّه يخاطب ملكاً عظيماً. هتف عالياً: اللّهم لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح.

دمعت كلّ العيون.

كان «المنهال» يبكي بصمت وقد اشتعل غضب مقدّس في الأعماق.. حتىٰ نسي كلّ ما يدور حوله.. انتبه إلىٰ نفسه علىٰ صوت غاضب:

ـ الحديد والنار .. اقطعوا يديه ورجليه والقوه في النار. كذلك جزاء المجرمين.

فغر المنهال فمه دهشة وهو ينظر إلى ما يجري حوله فهتف:

ـ سبحان الله .. سبحان الله.

التفت المختار:

ـ التسبيح حسن ولكن لِمَ سبّحت ؟

ـ لمّا ذهبت الى المدينة بعد الحجّ مررت بمنزل علي بن الحسين ..

كانت الدموع تملأ عينيه فسألني : ما فعل حرملة بن كاهل؟ قلت له يا سيدي تركته بالكوفة حيّاً.

فرفع يديه الى السماء وتضرّع بصوت شجي قائلاً :

اللّهم أذقه حرّ الحديد اللّهم أذقه حرّ النار.. وها أنا أمامي كيف تجاب دعوة عبد صالح..

هتف المختار مأخوذاً :

ـالله .. الله أسمعت علي بن الحسين يقول هذا ؟!

ـالله ... الله لقد سمعته يقول هذا... والله ان كلماته ما تزال تتردّد في أُذني .

وهوىٰ المختار ساجداً لله ..

قال المنهال متودّداً :

ـألا تتغدّى عندي اليوم أيها الأمير .

تمتم وقد غمرت وجهه مسحة شفافة من النور :

ـهذا يوم صوم شكر لله .

31

كما تشير البوصلة الى قطب الشمال. كان هناك شيء ما يتجه من بعيد يشير الى بقعة علىٰ شطآن الفرات ... الى منائر تنبعث من أعماق المياه.. شيء يشبه الروح تفصح عنه الحوادث كما تفصح الأرض عن سرّ البذار.

مضى التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك. الخيول تهزّ الأرض وتثير الغبار.. تغير على المدن، في العراقين وفي الحجاز.

فقد الانسان العربي طمأنينته.. ورحل زمن السلام، وهاجرت الروح بعيداً.

وعندما تغيب الروح، تنطفئ الجذوة المشتعلة التي تضيئ للانسان طريقه في الحياة.

بدت الكعبة ذلك العام كسفينة وسط أمواج بشرية متدافعة.

تمتم «زين العابدين» بحزن:

ـ ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج..

وقف سعيد بن المسيب وسط حشود القرّاء ينتظرون رجلاً

يدعوه الناس بألقاب ؛ فاذا قيل «ذو الثفنات» أو «سيد العابدين» أو «زين العابدين» أو «السجاد» أو «الزكي» أو «الأمين» فان الأذهان تنصرف الىٰ شابّ في الثلاثين من عمره... عليه سيماء النبوّات وقد رسم الحزن لوحة في عينيه تموج فيها غيوم مخزونة بالمطر .

ـ ها هو قادم .

هتف أحد القرّاء وقد أشار إلى جهة تفضي منها قوافل الحجيج .

ورنت الأبصار إلى نبع الطمأنينة في دنيا كلّ ما فيها يدور بعنف.

تهفو له القلوب الحائرة وهي تبحث عن طريق السماء بعدما تشابهت عليهم السبل .

انطلق الركب باتجاه الشمال الى حيث هاجر محمّد من قبل؛ سفن الصحراء تطوي المسافات الزاخرة بالرمال .

مالت الشمس نحو المغيب ، وألقت السفن مراسيها ليلتقط المسافرون أنفاسهم.

ثمّة شجيرات تحيط بغدير ماء؛ ومضارب لخيام بعيدة، ونسوة يحملن جرار الماء ويتجهن صوب الخيام.

غابت الشمس وراء كثبان الرمال؛ وبدت ذرىٰ التلال متّقدة بضوء يفور حمرة.

شمّر «زين العابدين» عن مرفقيه وراحت مياه الوضوء تنثال على وجه مضيئ فتتساقط حبّاتها محدثة نغماً هادئاً .

اتجه حفيد النبي بكليته الى البيت المعمور وكبّر للصلاة. بدا

كتمثال منحوت بخشوع ما خلا نسمات كانت تحرّك ثـيابه البـيضاء برفق.

خيّم صمت مهيب لكأن روح الانسان وهي تتصل بسـبب الى السماء تهيمن على كلّ ما حولها ومن حولها من شجر وحجر وآدميين.

هوىٰ الكائن الأبيض ساجداً للحقيقة الوحيدة؛ كحمامة تـبشّر بالسلام.

انبعثت كلمات أخاذة لكأنّها نهر يتدفق من جنّات الفـردوس، تنساب هادئة معبّرة تمسح على القلوب فتهبها السكينة وعلى الرمال فتغمرها خشوعاً وجلالاً.

النبع المتدفق يسحر الكائنات بتسبيح الإنسان:

سبحانك اللّهم وحنانيك
سبحانك اللّهم وتعاليت
سبحانك اللّهم والعزّ ازارك
سبحانك اللّهم والعظمة رداؤك
سبحانك اللّهم والكبرياء سلطانك
سبحانك من عظيم ما أعظمك
سبحانك سبحت في الأعلىٰ.. تسمع وترىٰ ما تحت الثرىٰ.
سبحانك أنت شاهد كلّ نجوىٰ
سبحانك موضع كلّ شكوىٰ
سبحانك حاضر كلّ ملأ

سبحانك عظيم الرجاء
سبحانك ترىٰ ما في قعر الماء
سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار
سبحانك تعلم وزن السموات
سبحانك تعلم وزن الأرضين
سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر
سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور
سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء
سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرّة
سبحانك قدوس قدوس قدوس
سبحانك عجباً من عرفك كيف لا يخافك
سبحانك اللّهم وبحمدك
سبحان الله العليّ العظيم

أمر عجيب! ماذا حدث؟ ما هذا الدوّي الذي تردده الكـائنات لكأنّ صوت الإنسان قد فجّر في مكنوناتها الأسرار كما تنفجر مـن الصخر ينابيع الحياة في لحظة تماس مع الغيب .

الأشواك وذرّات الرمال والشجيرات المتناثرة هنا وهناك تردّد بصوت يشبه دوّي النحل في نخاريبها: سبحان الله .. سبحان الله .

مرّت لحظات مشحونة سمع فيها أبناء آدم وقد عادوا من الحجّ الأكبر تسبيح الكائنات.

فغرت الأفواه دهشة وانعقدت الألسن في اللحظة التي يلج فيها ابن آدم عالم الملكوت.

رفع الذي عنده علم الكتاب رأسه من الأرض والتفت الى ابن المسيب :

ـ أفزعت يا سعيد ؟

أجاب سعيد وقد ثاب الى رشده :

ـ نعم يابن رسول الله ...

ـ هذا التسبيح الأعظم ..

سكت هنيهة ثم أردف :

ـ حدّثني أبي عن جدّي عن رسول الله لا تبق الذنوب مع هذا التسبيح، وان الله جلّ جلاله لمّا خلق جبريل ألهمه هذا التسبيح وهو اسم الله الأكبر.

عادت الأشياء الى طبيعتها وآب الانسان الىٰ عالمه حيث الأشجار صامتة وذرّات الرمال غافية منذ آلاف السنين؛ وبقي الانسان يتذكر لحظة قدسية ولج فيها الملكوت ثم عاد الى طبيعته مرّة أُخرىٰ.

32

الأرض العربية تهتزّ تحت حوافر آلاف الخيول وهي تغير على المدن فتشتعل المعارك، ويتصاعد دخان الحرائق ليحرق العيون .. كلّ العيون.

شبّت النار في «عين الوردة» وقد قتل صحابة كانوا حول الرسول وامتد الحريق الى «الموصل» هناك علىٰ شطآن «الخابور» قبل أن يرفد «دجلة» ملحمة يسقط فيها رأس «الأرقط»، وتشب النار في بطائح الفرات في ثورة للزنوج ثم تندلع في الحيرة لتحرق الكوفة ويقاتل المختار وحيداً في أزقّتها وتتقدم زوجته بشجاعة إلى لحظة الاعدام لتكون أوّل امرأة تقتل صبراً في تاريخ الإسلام.

الكوفة تستسلم لعبد الملك، والحجاج بن يوسف يشدّد الحصار علىٰ مكة ويقصف الكعبة بالمنجنيقات.

الكعبة تحترق مرّة أُخرىٰ وقد سجّر الشيطان نيرانه والجيوش الغازية تقتحم مكة فيرتفع ابن الزبير علىٰ أعواد الصليب.

حتى اذا دخل الخريف وقد مرّت سبعة قرون على ميلاد المسيح

كان عبد الملك قد بسط سطوته على الأرض الإسلامية من خراسان الى «قرطاجة».

خيّم سلام المقابر فوق الأرض، بعد أن أخمدت الأنفاس في «دير الجماجم» ليبدأ عهد جديد .. عهد الارهاب، وقد تسلّط وحش كاسر يدعىٰ «الحجاج» علىٰ مشارق الوطن المقهور.

واستيقظت في الذاكرة أحاديث قديمة ... كلمات نقلها الرواة حول رجل يأتي في آخر الزمان يحيل سنوات الرماد إلى أعوام خصب، وقد ولد الربيع واستيقظت مواسم البذار؛ والبيادر تموج بحب الحصيد.

نظر ابن جبير الى سيماء النبوّات تطوف فوق جبين حفيد النبيّ، تفجّر نبع حبّ في القلب حتىٰ فاضت كلمات:

ـ إني لأحبّك في الله حبّاً عظيماً.

أطرق ابن النبي ثم رفع رأسه الىٰ السماء وهتف بخشوع:

ـ اللّهم اني أعوذ بك أن أُحبّ فيك وأنت لي مبغض ..

والتفت الىٰ سعيد وقال:

ـ واني لأحبّك للذي تحبني فيه.

خيّم صمت حزين وقد اشتعلت مشاهد قانية في ذاكرة الرجل الكوفي:

ـ حدّثني يا سيدي عن المهدي.

أدرك ما يجول في خاطر رجل مقهور ضاقت عليه الأرض بما

رحبت وهو يروم العودة إلى الكوفة إلى حمامات الدم المراق بلا ذنب.

قال سليل النبوّات :

ـ في المهدي يا سعيد سنّة من سبعة أنبياء من أبينا آدم ومن نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وأيوب وسنّة من محمّد .. فمن آدم ونوح طول العمر، ومن إبراهيم خفاء الميلاد واعتزال الناس ومن موسىٰ الخوف والغيبة ومن عيسىٰ اختلاف الناس فيه ومن أيوب الفرج بعد البلاء ومن محمّد الخروج بالسيف ..

أطرق ابن جبير يتأمّل في ملامح القادم الأخضر ... الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً فلقد ضجّت ظلماً وجوراً .

غادر سعيد أرض الحجاز متوغلاً في الصحراء العراقية .

ودّع عوالم السلام في مكّة والمدينة ودخل الأرض الحزينة التي ما تزال تبحث عن أبنائها ولمّا تفقد الأمل بعد.

33

جلس الحجاج في قصره المنيف الى يمينه «تـياذوق» والى شماله «تاودون» تبرق عيونهما حقداً على الأشياء التي تنبض بالحياة.. على القلوب التي تخفق بالحبّ حتى ان المرء ليعجب كيف أصبحا طبيبين.

رائحة الدم تزكم الأُنوف .. صمت مهيب يغمر المكان، وقد بـدا القصر مسحوراً.. العيون جامدة كأحداق زجاجية والقلوب مقدودة من صخور صمّاء قاسية.

كان «الحجاج» ينتظر غريماً طالما جدّ في البحث عنه وهـا هـم يرسلونه مخفوراً من مكّة.

ارتفعت جلبة في باب القصر. عرف الحجاج انّهم قد جاءوا به. لبس جلد الأفعىٰ وصوّب نظرات حارقة الى الباب.

ودخل رجل لا يخشىٰ أحداً إلّا الله ...

كان هادئ القسمات مطمئناً .. لاتعلو وجهه تـلك الصـفرة التي تغشىٰ من في قبضة الجلّادين.

تمتم الحجاج ساخراً وهو يصعّد النظر في غريمه :

ـ أنت شقي بن كسير ؟

أجاب بغير اكتراث :

ـ أُمي أعرف باسمي .

ـ لقد سمعت انّك لم تضحك قط .

ـ لم أرَ شيئاً يضحكني .. وكيف يضحك مخلوق من طين.

ـ ولكنّي أضحك .

ـ كذلك خلقنا الله أطوارا .

ـ هل رأيت شيئاً من اللهو .

ـ ...

صفّق الحجاج بيديه .. فوقف المطربون صفّاً ، وارتفعت أصوات الأبواق، وصدح الناي، وعلا الضرب علىٰ الأعواد .

وبكىٰ سعيد .. انهمرت دموعه كغمامة حزينة.

تمتم «الجلّاد» حانقاً :

ـ مالك تبكي ؟

ـ لقد تذكرت أمراً عظيماً . لقد ذكّرني البوق بيوم النفخ في الصور.. وهذا العود نبت بحق وقطع للباطل والفساد .

ـ أنا قاتلك لا محالة .

ـ الموت مصيرنا جميعاً .

ـ أنا أحب إلى الله منك .

ـ الله وحده علّام الغيوب .

ـ أنا مع خليفة المسلمين وأمير المؤمنين .

ـ ...

أشار الذي بقبضتيه السوط والسيف فجاء جلاوزة يحملون الذهب والفضة.. ورمىٰ الجلاوزة سحرهم الذي يخطف بالأبصار ..

التفت الحجاج الى الرجل المكبّل بالأغلال :

ـ ما رأيك في هذا ؟

ـ هذا حسن ان قمت بشرطه .

ـ ماهو شرطه ؟

ـ أن تشتري به الأمن يوم الفزع الأكبر .

ـ الويل لك .

ـ الويل لمن زحزح عن الجنّة فهوىٰ في قعر الجحيم .

صرخ الحجاج بعصبية :

ـ اضربوا عنقه .

قال المحكوم بالموت :

ـ حتىٰ أُصلّي ركعتين .

اقترب «تاودون» من الأسير .

وضع أُذنه علىٰ بقعة صغيرة في أعلىٰ اليسار من القفص الصدري.

أرهف السمع .. كان يتوقع ان القلب المحكوم بالموت سيتحول الى طبل يدقّ بعنف .. يطلق صيحات الاستغاثة والرعب. القلب

المؤمن يخفق بهدوء.

ـ أمرٌ عجيب.

تمتم الطبيب وراح يتفرّس في وجه الرجل العجيب .. كـلّ شيء يبدو هادئاً لكأن هذا الرجل ليس محكوماً بـالفناء .. انّـه يـنظر إلى الموت باستخفاف .. لربما يحسبه قنطرة يعبر خلالها الى عـالم مـفعم بالسلام.

وتوجه الرجل الذي أوشك عـلى الرحـيل الى عـالم لا نهـائي. الصلاة تنساب من بين شفتيه كنهر هادئ:

ـ وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض.

صرخ الحجاج:

احرفوه الى قبلة النصارىٰ:

النهر الهادئ يتدفق سلاماً:

ـ أينما تولّوا فثَمّ وجه الله ...

وانطلقت دعوة المظلوم تشقّ طريقها نحو السماء:

ـ اللّهم لا تترك له ظلمي واطلبه بدمي واجعلني آخر قتيل يقتله من أُمّة محمّد..

وارتفع سيف الجلاد ليهوي ويهوي معه رأس ما انحنىٰ لغير الله .. وسمع الحاضرون صوتاً مهيباً:

ـ الله أكبر .. الله أكـ بـ ر

كان الحجاج ينظر متلذذاً الى الدماء وهي تتدفق من الأوداج.

الدماء تتدفق .. تتدفق .

فغر الحجاج فاه! انّه لم يرَ كـهذا الدم الذي يشـخب كـالميزاب. التفت الى «تياذوق» متسائلاً يطلب جواباً لهذا الدم الذي يتدفق بلا انقطاع .

قال طبيب الجلّادين :

ـ ان كلّ الذين قتلتهم كانوا خائفين .. تجمّد الدم في عروقهم قبل أن يموتوا .. ماتوا قبل أن يقتلوا .. أما هذا ؟!

ـ تكلّم !

ـ لم يمت حتى بعد القتل ..

صرخ الحجاج كمن أصابه مسّ من الجنون :

ـ مالي ولسعيد بن جبير!

34

وقـف «عـبد المـلك» في شرفـة «قـصر الخـضراء» يـنظر إلى المساحات الخضراء الممتدة .. وينابيع المياه المـتدفقة؛ وهـي تـندفع خلال الأشجار.

شعر بضيق في صدره كان يقلّب رسالة مـن الحـجاج حـاكـم المشرق الذي ثبّت له أركان الحكم بقوّة الحديد والنار. فيها كلمات تكاد تكون انذاراً:

اذا أردت أن يسلم لك ملكك فاقتل علي بن الحسين ...

ـ أمرٌ عجيب ..

تمتم عبد الملك وهو يغادر الشرفة وأردف :

ـ انّه يبدو بعيداً عن شؤون الدنيا منصرفاً عن الحياة منزوياً في بيته يدعو ... و.. يبكي ليس غير .. وها هو الحجاج يقول بأن الخطر يكمن في هذا الرجل !!

ـ لا .. لا ..

هتف الخليفة .. بصوت مبحوح وأردف :

ـ لن ألغ في هذا الدم . لقد رأيت بـأُمّ عـيني مـاذا فـعلت دمـاء الحسين من قبل.. كيف أحرقت آل أبي سفيان ولم تـبق لهـم بـاقية. ولكن سأحصي عليه حركاته وسكناته . سأخنقه بالجواسيس، اما القتل فلا ..

دخل الحاجب يحمل بيده رسالة من وراء الحدود.

فضّ الخليفة الختم باهتمام فهي من القيصر جوستنيان امبراطور الروم.

وحضر المترجم قبل استدعائه.

كاد الخليفة أن ينهار علىٰ الأرض وهو يصغي كلمات فيها تهديد ووعيد .. وغطرسة :

ـ أكلت لحم البعير الذي هرب عليه أبوك من المدينة.. لأغزونّك بجنود مئة ألف ومئة ألف ومئة ألف.

هتف الخليفة مذعوراً وهو يـتصوّر تـدفق آلاف الجـنود عـبر الحدود لتأتي علىٰ كلّ ما حقّقه من انتصارات ويصبح ملكه في خبر كان ..

ليس الحرب هو مصدر الخطر.. هناك سلاح آخر أكثر فـتكاً . لسوف يقطع عن دولة الاسلام النقد. وهذا يعني خراب البلاد .

تمتم وهو يتهالك علىٰ سرير كبير محلّىٰ بالذهب:

ـ أحسبني اشأم مولود ولد في الإسلام .

نشر المساء ظلاله وبدا قصر الخضراء في غمرة الظلمة الخـفيفة

بومة جائمة تترقب شيئاً ما.

كان ضوء القناديل يتدفق من نوافـذ القـصر فـبدت مسـاقط الضوء كدنانير ذهبية.. أو هكذا كان خطر في بـال «الخـليفة» وهـو يتأمّل ديناراً رومياً فيه كلمات عن الأب والإبن والروح القدس ...

حضر علية القوم وأخذوا أماكنهم وهم ينظرون من طرف خفيّ إلىٰ حاكم البلاد من شرق خراسان الى أطراف «قرطاجة».

طوّح الخليفة المهموم بالدينار في الفضاء فسـقط عـلىٰ البـلاط المرمري محدّثاً رنيناً ساحراً.

هتف بغيظ:

ـ سوف يقطعون عنّا النقد ... فغرت بعض الأفواه .. واتسـعت بعض العيون دهشة وهم يصغون إلى أنباء قادمة من وراء الحدود .. القيصر يطلب المزيد .. لم تعد تقنعه مئات الخيول العربية التي تدفعها الخلافة الإسلامية منذ عهد معاوية وإلى اليوم .. لم يعد يرضيه مئات العيسويين الذين يـرغبون بـالنزوح الى القسـطنطينية .. ولا آلاف الدنانير فيكلّ جمعة. ها هو يريد التنازل عن مزيد من الأراضي التي حرّرتها خيول الفتح.

هتف الخليفة بصوت يشبه الاستغاثة:

ـ ماذا أفعل؟

كان الصمت هو الردّ الذي تلقّاه ..

تمتم «روح بن زنباع» من أقصىٰ المجلس .. ترددت كلماته رغم

خفوتها وترددها:

ـ انّك لتعلم الرأي والخلاص من هذا المأزق.

هتف عبد الملك كمن يتشبث بعمود من سفينة محطمة وسط المياه:

ـ ويحك من تعني؟

قال الشيخ الذي عركته السنون:

ـ الباقي من أهل بيت النبي.

صوت اختلج في أعماق عبد الملك لم يسمعه أحد:

ـ يا لي من أحمق؛ لماذا لم يخطر علىٰ بالي ذلك.

35

خف عبد الملك لاستقبال شاب لم يبلغ العشرين بعد، يحمل معه خطة الخلاص...

كان الاستقبال حافلاً .. وقف علية القـوم يـتطلّعون إلى وارث الأنبياء.

كان الخليفة علىٰ أحرّ من الجمر لسماع ما يحمله محمّد عن أبيه.

نظر الى ضيفه بإجلال وفي عينيه سؤال كبير .

ابتسم محمّد وقال :

ـ الرأي أن تبعث له برسالة تستمهله فيها مدّة من الزمن ..

ـ ثم ؟!

ـ ثم اجمع ما استطعت من الذهب والفضة .

ـ وبعد ؟

ـ وابدأ بصك الدرهم والدينار .. وليكن فيها شعار الاسلام .. قل هو الله أحد و محمّد رسول الله ..

ـ وبعد !

ـ فاذا فرغت من ذلك امنع تداول النقد الرومي واعرض النقد الإسلامي بدلاً عنه.. وسنّ لذلك العقوبات لمن يخالف ذلك .

كان «روح» يصغي بإعجاب لما يسمع فتمتم في نفسه :

ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته .

انطلقت في الصباح الباكر خيول بلق ، تنهب المسافات الى المدن والحواضر، تحمل رسائل متشابهة بالغة السرّية .

شهدت أسواق الذهب والفضة حركة غير عادية .. وكانت الحلي الذهبية تختفي شيئاً فشيئاً .. والنسوة يبعن أقراطهن وقلائدهن مقابل مبالغ مغرية.

ونشأت معامل لصك الدنانير الذهبية .. وبدأ العمل بانتاج النقد الجديد وظهر لأوّل مرّة في التاريخ الدينار الإسلامي يتألّق يحمل نداء التوحيد وشعار الرسالة المحمدية .

ودّع محمّد مدينة دمشق بعد أن اطمأن الى زوال الخطر ... كان يحمل معه نماذج من النقد الجديد، وفيها نقوش تشير الى مرور اربعة وسبعين سنة على بدء التاريخ الهجري وقيام الدولة الاسلامية.

وقف عبد الملك يشيّع ضيفه بنظرات متأمّلة فيها حذر وقلق بدأت تساوره من ابناء علي... فهؤلاء يمثّلون القمّة في كلّ شيء ... حتى الشباب منهم. انّه لن ينسىٰ جلوسه مع «محمد» جلسة التلميذ في حضرة استاذه .. لم تشفع له أُبهة الملك أمام هيبة ابن علي...

سيبقىٰ علي وابناؤه هاجس الملوك علىٰ مرّ الأيام.

غاب الضيف عن الأنظار، وانكفأ الخليفة نحـو أروقـة قـصره المنيف وهو يفكّر في رسالة الحجاج التي بعثها اليه قبل شهور.

كما يطرد المرء ذبابة حطّت على أنفه طرد عبد الملك فكرة قتل «ابن الحسين» وتمتم في نفسه :

ـ لا .. لا .. كفاني ما سفكت من الدماء ..

نظر الى أكياس طافحة بالدنانير الإسلامية فشعر بـالثقة تمـلأ نفسه ...

استدعىٰ كاتبه ليسطر له ردّاً قـويّاً يـليق بـدولة الإسـلام إلى جوستنيان الثاني .. ردّاً يحطّم غروره إلى الأبد؛ وأرفق مـع رسـالته نقوداً إسلامية .

36

مرّت أعوام وأعوام والتاريخ ما انفك يشعل الحوادث .

خيول الاسلام تدقّ أبواب «مرعش» من أرض روم، وتوغل في السند في بلاد ما وراء النهر، والمعارك مع الكاهنة مازالت ضارية .

وقد ثار «الأزارقة» في «كازرون» ثم في «الجزيرة» وثار «ابـن الجارود» على الحجاج، وثار الزنج في البصرة بزعامة «شيرزاد» .

الروم يغيرون علىٰ «قرطاجة» من أرض المغرب .

والبادية العربية تردد قصة عشق بدوية: «توبة» يهيم بحبّ «ليلىٰ الأخيلية» وقد رفض أبوها تزويجها وهدّد الخليفة العاشق اذا شبب بها .

قال لها عبد الملك :

ـ ما رأى منك توبة حتىٰ عشقك ؟

فأجابت على الفور :

ـ ما رأى الناس منك حين جعلوك خليفة ؟!

وأراد أن يعرّض بها فسأل :

ـ هل كان بينك وبينه ريبة ؟

ـ لا والله .. ولكنه قال لي كلمة ظننت انّه خضع فيها لبعض الأمر فقلت له :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بهـا
فليس اليها مـا حـييت سـبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخـونه
وأنت لأخرىٰ صاحب وخليل

ولما مـاتت ليـلىٰ في «سـاوة» حـلّقت في سماء البـوادي قـصة عاشقين.. وتناقل الناس حكاية حبّ جديدة بين بثينة وجميل، مـن بني عذرة، وقد مات الحبيب في مصر بعيداً عن حبيبته .

خيول الاسلام تندفع باتجاه أرمينيا، وفي جبهة مـا وراء النهـر يستمر الفتح حتى «خوارزم» فـ«شومان» وإلى مدينة «ترمذ» .

والطاعون يجتاح مصر، ثم الشام والعراق، ويموت عـبد المـلك، فيتربّع على العرش ابنه «الوليد» وتتصاعد وتيرة «الفتح» لتتخذ لها صبغة الاحتلال والتوسع، ويـتدفق سـيل الغـنائم وسـبي عـذارىٰ البلدان المفتوحة .

وتفتح «طنجة» في أقصىٰ المغرب أبوابها للجيوش الاسـلامية حتىٰ سواحل البحر.

ويفرّ «جوستنيان» من منفاه «سينوب» ويعود الى عرشه بمعونة البلغار.

والوليد يطرد حاكم المدينة المنورة من منصبه، ويأمر بايقافه للناس للاقتصاص منه...

أشرقت شمس ذلك اليوم لتعلن بدء يوم جديد خرج الناس زرافات زرافات ينظرون إلى الزمن كيف يقهر ..

هاهو «هشام المخزومي» الذي ما ترك أحداً إلّا اضطهده وصبّ حقده على بقية آل محمد.

ومرّ رجل تقدّم من الحرّاس المحيطين بالحاكم السابق فقال وأشار الى هشام:

ـ ان هذا ضربني سوطين ظلماً.

ـ وهل يشهد لك أحد ؟

ـ نعم .. هذان.

ـ اذن تقدّم واقتص منه.

وهوى الرجل فلوّح بسوطه مرّتين.

تأوّه «هشام» وتمتم :

ـ ما أخاف إلّا من علي بن الحسين فطالما أسأت اليه.

تقدّم رجل آخر فقال :

ـ ان هذا بصق في وجهي دون حق.

ـ والشهود.

ـ هذا وهذا.

ـ ابصق في وجهه اذا شئت.

وقف الرجل وجمع ما استطاع من لعابه ليقذف به وجه «هشام».
رفع كفاً ترتجف ومسح وجهه وتمتم بحزن:
ـ كلّ هذا يهون .. ترىٰ ماذا سيفعل بي علي بن الحسين اذا حضر..

لاح من بعيد الرجل «السجّاد» «ذو النفثات» كان يمشي الهوينى في طريقه الى المسجد حيث أوقف المغضوب عليه للاقتصاص.

تصاعدت دقّات قلب «هشام» .. أضحت كطبل أفريقي يرسل صيحات استغاثة.

قال علي لابنه عبدالله:

ـ ان هذا الرجل قد عزل وأوقفه «الوليد» للناس فلا يتعرّض له أحد بسوء.

تعجب الابن:

ـ ولِمَ يا أبت .. لطالما أساء الينا .. وهذا ما نبغيه اليوم.

التفت الأب الى ابنه وهو يعظه:

ـ يا بني نكله إلى الله.

ولما أصبح السجّاد بمحاذاته واستعد «هشام» للحظة الانتقام اذا به يسمع شيئاً لم يخطر على باله.

قال السجّاد:

ـ إذا احتجت الى مال يطلبه أحد منك فلدينا ما يسعك فلا تقلق.. وطب نفساً منّا ومن كلّ من يطيعنا.

أحدثت الكلمات دوياً في نفسه حتى ان المـرء ليمكـنه أن يـرى أصداء الانهيارات وهي تنعكس في عينيه وفي قسمات وجهه.

هتف «هشام» :

ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وأخذ «ذو الثفنات» سمته نحو المسجد .. وقد التفّت حوله جموع المؤمنين. وتدفق شلال الصلاة في مسجد النبي يصلّي فيه حفيده .

37

ـ ألا تذهب الى المسجد يا أبي ؟!

قالت الصبية لأبيها الشيخ ..

تمتم ومياه الوضوء تتقاطر من وجهه :

ـ والله يا بنيتي اني لأخجل من نفسي ..

ـ ولِمَ ؟

ـ لقد رأيت في ظهيرة اليوم ما لم أره ولن أراه .

ـ وما رأيت يا أبه ؟

ـ رأيت الحسن بن الحسن .

ـ السجين الذي انهالوا عليه بالسياط في مسجد النبي قبل شهرين.

ـ أجل .. رأيته اليوم يقف على رأس ابن عمّه علي بن الحسين .. فشتمه وأسمعه سيئ الكلام ... والله لوددت أن أصفعه .

ـ وماذا حصل ؟

ـ لا شيء، أطرق «السجاد» ولم ينبس ببنت شفة إجلالاً لمسجد

جدّه

سكت الشيخ هنيهة واستأنف حديثه :

ـ فلما غادر الحسن المسجد ، رفع علي رأسه ونظر الينا . كنّا جميعاً ساكتين .. وعرف ما في قلوبنا من رغبة في أن يرد له الصاع صاعين ... وفرحنا عندما قال لنا : قد سمعتم ما قال الرجل وأنا أحبّ أن تنهضوا معي حتىٰ تسمعوا ردّي عليه .

فنهضنا معه وانطلقنا نحثّ الخطىٰ الى منزل الحسن وهتف «السجّاد» بابن عمّه فخرجت جارية تسأل عن الطارق فقال: قولي له علي بن الحسين فخرج الينا متوثباً عيناه تقدحان شرّاً مستطيراً .

ـ وماذا حصل يا أبي ؟

ـ أمرٌ عجيب يا بنيتي. لقد ورثوا مكارم الخُلق عن جدّهم .. لم يزد على أن قال له: يا أخي انّك قد وقفت عليّ آنفاً وقلت وقلت .. فإن كان الذي قلته حقّاً فأنا استغفر الله منه وان كان باطلاً ما قلت فغفر الله لك ..

ـ يا لهذا الحلم ! فماذا قال الحسن ؟

ـ يا بنيتي والله رأيته يرتجف وقد سقطت العصا من يده وتصبّب جبينه عرقاً.. لكأن الأرض تهتز تحت قدميه ... ورأيته يبكي مثلما يبكي الأطفال.. ثم ألقى بنفسه على ابن عمه وقال: أجل والله قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحقّ به .

قال السجّاد وهو يقبّله :

ـأعرف انما دفعك الى ذلك الحاجة .

وأخرج من جيبه صرّة فيها ألف دينار وناولها إيّاه. وسمعته لما عدنا الى المسجد يقول: ما تجرعت جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظ لا اكافئ بها صاحبها .

ظلّت الصبية مأخوذة بما تسمع . وتمتمت :

ـهذه والله مواعظ الأنبياء .

راحت الفتاة تراقب والدها وهو يلج عالم الصلاة ويرفع كفين معروقتين الى خالق السموات والأرضين الله ربّ العالمين .

ارتفعت طرقات على الباب .. وخفّت الفتاة لتعرف الزائر ..

كانت النجوم قد اجتمعت في السماء ؛ هتف الطارق :

ـأنا علي بن الحسين .

صاح الشيخ في حجرته :

ـواسوآتاه ظنني مريضاً فجاء يعودني .

وانطلق الشيخ لاستقبال رجل ما على وجه الأرض شبيه له.

ملأت رائحة الطيب فضاء البيت لكأن الربيع قد حلّ ضيفاً عندهم

همس السجّاد وقد أضاءت ابتسامة وجهه الحزين :

ـأقلقني غيابك أبا خالد .

لم يجد الشيخ ما يقوله فنهض يقبّل جبين ضيفه العظيم .

ملأ رئتيه من عبير النبوّات. وهتف مأخوذاً :

ـالله أعلم حيث يجعل رسالته .

38

دمشق تصطخب بأسواق النخاسة وآلاف العذارىٰ من أجناس بشرية عديدة معروضة للبيع ونظرات جائعة مشتهية تتصفح وجوهاً جميلة تشوبها ذلّة السبي وحزن فراق الأحبّة.

فتيات من بلاد ما وراء النهر من «سمرقند» و «بخارىٰ» وبربريات من «طنجة» و «القيروان» وحسناوات من «أرض روم» و «سوسنة» و .. و ..

وقد عبر طارق البحر تحمله سفن عربية وأُخرىٰ «سبتية» فيرسو عند شواطئ جبل «كالبي» ويتخذ الجبل اسم الفاتح الجديد.. السفن تشقّ مياه المحيط فتفتح «الجزيرة الخضراء» ثم «قرطاجة» ثم تقتحم البرّ الاسباني لتسقط «طليطلة» عاصمة الدولة القبطية، والخيول العربية تغسل اقدامها في شواطئ البوسفور. ودمشق تستقبل قوافل السبي لتنضم الى أسواق النخاسة هنديات لهن عيون المها.

قصر الخضراء يتألّق في غمرة القناديل المضيئة، فالمجد للسيف

والحصان، وطبول الحرب.

كانت أنغام الموسيقىٰ تفتن علية القوم والنفوس نشوىٰ تطير في عالم الخيال.. عالم يصنعه عصير شفاف مشوب بحمرة رائقة تدبّ في الرؤوس كـدبيب النمـل.. فـيغفو العـقل وتحـلّق النـفوس في عـوالم مسحورة زاخرة بالأوهام.

ولكن ما باله الخليفة هذه الليلة .. يكاد يضيق بما حـوله وبمـن حوله .. ألا يعجبه منظر الجـواري يرفلن بـالحرير المـلوّن .. وهـذه الخمرة الرومية ورائحة الشواء .. وتلك الحلوى الفارسية.

فغر الحاضرون أفواههم وقد سمعوا الخـليفة يـطلب مـصحفاً، توقفت الموسيقىٰ عن إرسال أنغامها، وجمدت الجواري في أماكـنها وساد القصر وجوم غريب.

جاء الحاجب يحمل مصحفاً مذهباً مرصّعاً بالجواهر ووضعه بين يدي «الوليد».

فتح الرجل الذي لم تسكره الخمرة بعد المصحف، فوقعت عيناه على أوّل آية وصدح القرآن بصوت الحق «واستفتحوا وخاب كـلّ جبارٍ عنيد».

شعر الوليد بأن الكلمات تغوص في أمعائه كسيوف حادّة .. ريح مجنونة تعصف برأسه. صرخ خليفة المسلمين:

ـ اصلبوه!

أمسك الجلاوزة بكتاب السماء ..

صلبوه الى اسطوانة في وسط البلاط .

ها هو فرعون يسخر من موسىٰ .. يلتفت الى هامان :

ـ «فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطّلع إلىٰ إله موسىٰ واني لأظنّه كاذباً» .

وارتقى فرعون صرحاً عالياً. حمل معه قوسه فلما ان بلغ الذرىٰ، وضع في كبد القوس سهماً وأطلقه باتجاه السماوات !!

«الوليد» يضع في كبد القوس سهماً ويسدّد باتجاه القرآن المصلوب، وتنهال السهام.. وتتناثر آيات القرآن فوق رخام البلاط..

كان الوليد مفتوناً بما يفعل وهو ينشد بصوت يشبه فحيح الأفاعي:

تهـدّد كلّ جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشرٍ   فقل ياربّ مزّقني الوليد

في الصباح لبس الوليد ثياب الخلافة، ووقف يودّع أخاه «هشاماً» أميراً على الموسم... وابتعد الموكب عن أسوار دمشق في طريقه إلى الحجاز ولم ينس «الوليد» أن يدسّ معه رجالاً في مهمات سرية .. يحملون معهم مركبات مستحضرة في القسطنطينية باهضة الثمن كان معاوية يحرص على استيرادها دائماً.

39

قوافل الحجاج تنساب في بطون الأودية، لكأنها تصغي الى نداء إبراهيم؛ الكتل البشرية تتدفق صوب أوّل بيت وضع للناس، وموسم هذا العام موسم زحام بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ونسي الناس أو كادوا ذكريات حزينة، أو دفنوها في أعماق القلوب.

وتعلو في الآفاق نداءات الحرية للانسان عندما يعبد الله وحده وتهتف الحناجر الآدمية: لبيك اللّهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك.. ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ..

وتطفو الكعبة في بحر الأمواج البشرية وهي ترفل بثياب الحج البيضاء كحمائم السلام. وهنا يدرك الانسان أن لا إله إلّا الله .. لا ربّ سواه وان الناس سواسية لا فضل لعربي علىٰ أعجمي إلّا بالتقوىٰ... فيصغي المرء إلى كلمات الله وهي تتدفق في قلب الإنسان: «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» فتتهاوى الحواجز وتتلاشىٰ الامتيازات وتتمزّق الحجب واذا المسلم أخو المسلم حقّاً واذا القلوب تتطهّر من

أدران الشرك.

كان «هشام بن عبد الملك» يطوف حول الكعبة لا يكترث له أحد ولا يهابه انسان حوله رجاله من أهل الشام ..

بذل هشام كلّ ما بوسعه في استلام الحجر الاسود ولكن الأمواج البشرية كانت تصدّه في كلّ مرّة فيرجع خائباً.

بان الحنق في عينه الحولاء .

ألقىٰ بنفسه علىٰ كرسي في ناحية من الحرم وجلس ينظر وينتظر انحسار الأمواج البشرية؛ شعر بأنّه ليس شيئاً في هذا المكان، وبدا له الحجر الأسود بعيداً.. بعيداً جداً.

وأقبل رجل قد اجتاز الخمسين من السنين، وكان وجهه يضيئ كقمر بين الغيوم... وحدث أمر عجيب. تناثرت أسئلة وارتسمت علامات استفهام. تساءل شامي وهو يتطلّع الى رجل يرفل بحلّته البيضاء الناصعة نصاعة الثلوج في جبال الشام.

ـ من هذا الرجل الذي ينفرج له الناس كملك عظيم ؟!

وهتف بأصحابه :

ـ انظروا .. انظروا .. انّه يشقّ طريقه بيسر إلى الحجر الأسود.

قبّل الرجل ذي الوجه المضيئ الحجر الأسود واستأنفت الأمواج البشرية تدافعها من جديد.

التفت الشامي الى خليفة المستقبل :

ـ من هذا ؟!

ردّ الأحول بغيظ :

ـ لا أدري .

وحده القدر يفسّر مرور الشعراء في لحظات يتوقّف عندها التاريخ بإجلال.

هتف الفرزدق :

ـ ولكني أدري من هو .

تساءل الشامي بشوق :

ـ ومن هو يا أبا فراس ؟

فأنشد:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجدّه أنبياء الله قد ختموا
اذا رأته قريش قال قائلها
الى مكارم هذا ينتهي الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته
ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
وليس قولك من هذا بضائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم

استشاط هشام حقداً.. وبدت عينه الحولاء تتراقص في محجرها. وتخطفت الجلاوزة شاعراً نفث روح القدس على لسانه.. وسيق الشاعر مخفوراً إلى السجن فهذا زمن مصنوع من خشب ونحاس.. زمن لا يعرف للكلمة حرمتها .. زمن غابت فيها الآيات وراء القضبان.

40

كانت الرياح شتائية باردة والليل يغمر بظلمته المدينة.

الأزقّة مقفرة وقد أوىٰ الناس الى النوم، ما خلا بيوت متواضعة كان الضوء يرسل أشعته الواهنة من كوى صغيرة فيها؛ وخلف أبوابها كانت آذان تترقب قدوم «صاحب الجراب».

تساءل «ابن شهاب» وهو يرى رجلاً يمرق في الظلام، كان الرجل ملثماً ولكنّه عرفه؛ ولكن ما دعاه الى الخروج في الساعة من الليل، كان «ابن شهاب» عائداً من قصر «الوالي». هتف «الزهري» :

ـ يابن رسول الله! ما هذا ؟!

عدّل «حامل الجراب» جرابه وأجاب :

ـ أريد سفراً وهذا زادي .

تعجّب «ابن شهاب» .

ـ دع غلامي يحمله عنك اذن .

رفض «السجاد» وحاول «الزهري» أن يأخذ الكيس عنه .

ـ دعني أحمله أنا ..

ـ انّه زادي وأنا أحق بحمله .. اسألك بحق الله أن تتركني وتمضي.

وغاب «صاحب الجراب» في زقاق ملئ بالليل والبرد .

عدّل من لثامه وطرق باباً صغيرة ووضع شيئاً ثم مضىٰ ...

وتوقف أمام بيت يكاد جداره أن ينهار. نقر على الباب وترك شيئاً على عتبته ثم استأنف طريقه في الأزقة والبرد والظلام .

ومرّت ساعات عاد بعدها «صاحب الجراب» بلا جراب، كانت النجوم تشتد بريقاً في السماء وقد انفتحت نوافذ الملكوت .

ولج السجّاد محرابه .. وتدفق نبع من الصلاة فقد آن لقاء الحبيب مع محبوبه.. وانساب نهر من كلمات الانسان وهو يشدو بحبّ بارئ الخليقة :

ـ الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً ؟
ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغىٰ عنك حولا ؟
الهي فاجعلنا ممّن اصطفيته لقربك وولايتك
وأخلصته لودّك ومحبّتك
وشوّقته الى لقائك
ورضّيته بقضائك
ومنحته بالنظر الى وجهك
وحبوته برضاك
واعذته من هجرك وقلاك
وبوّأته مقعد الصدق في جوارك ...

وخصصته بمعرفتك ...

وأهّلته لعبادتك ...

وهميت قلبه لإرادتك ...

واجتبيته لمشاهدتك...

وأخليت وجهه لك...

وفرّغت فؤاده لحبّك...

ورغبته فيما عندك...

وألهمته ذكرك...

وأوزعته شكرك ...

وشغلته بطاعتك!

وصيّرته من صالحي بريّتك...

واخترته لمناجاتك ...

وقطعت عنه كلّ شيء يقطعه عنك.

الهي! اجعلنا ممّن دأبهم الارتياح اليك والحنين ...

ودهرهم الزفرة والأنين...

جباههم ساجدة لعظمتك ...

وعيونهم ساهرة في خدمتك ...

ودموعهم سائلة من خشيتك

وقلوبهم متعلّقة بمحبتك

وأفئدتهم منخلعة من مهابتك ...

السماء تكتظ بـالنجوم وقـد تكـاثفت ظـلمة اللـيل فـانطلقت استغاثة قلب الإنسان عندما تنفتح أبواب الملكوت :

ـ يامن أنوار قدسه لأبصار محبيّه رائقة!

وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة!

يا منىٰ قلوب المشتاقين!

ويا غاية آمال المحبيّن !

اسألك من حبك وحب من يحبك!

وحبّ كل عمل يوصلني الى قربك

وان تجعلك أحبّ إليّ ممّا سواك

وان تجعل حبي إيّاك قائداً الى رضوانك

وشوقي اليك ذائداً عن عصيانك

وامنن بالنظر اليك عليّ

وانظر بعين الودّ والعطف اليّ

ولا تصرف عنّي وجهك

واجعلني من أهل الاسعاد والحظوة عندك

يا مجيب. يا أرحم الراحمين

العينان تسحّان الدموع .. دموع الحبّ الإلهي المفتون... كـسماء تمطر على هون .. تغسل الأشجار والأرض فتهتز وتربو .. والدموع تغسل قلب الإنسان فيشرق بـنور ربّـه ويـنبض بـالحب والأمـل والسلام .

41

ـ ماذا أرىٰ ؟

هتف الزهري وقد وقعت عيناه على «السجّاد» بين المحراب والمنبر وأردف وهو يحثّ الخطىٰ اليه :

ـ ألم يخبرني بأنّه علىٰ سفر ؟!

أومأ مسلماً وهتف :

ـ يابن رسول الله لست أرى لذلك السفر أثرا ؟!

تمتم السجّاد بخشوع من أوشك على الرحيل عن الدنيا :

ـ بلىٰ يا زهري ... ولكن ليس كما ظننت ، انما هو سفر الآخرة .

ـ والمتاع الذي كنت تحمل لم يكن غير صدقات للفقراء ؟

وتمتم متأثراً وهو يبتعد :

ـ نعم السفر سفرة الآخرة وخير الزاد التقوىٰ.

انتحىٰ الزهري زاوية من المسجد وكان ما يزال متأثراً، قال صاحب له:

ـ انّك لا تفتأ تذكر علي بن الحسين بخير .

التفت الزهري وقد شمّ رائحة تملّق .

ـ ويحك يا هذا والله لم أرَ ولن أرىٰ مثل علي بن الحسين ما حييت... لقد رأيته مقيّداً بالحديد وقد أحدق الحرّاس به يريدون إرساله الى دمشق بأمر عبد الملك؛ فاستأذنتهم في وداعه فلم أملك نفسي عن البكاء فبكيت وقلت له: وددت اني مكانك وأنت سالم فرفع بصره إليّ وقال:

ـ يا زهري أتظن ان ما ترىٰ عليّ وفي عنقي يكرثني، أما لو شئت لما كان، وانّه ليذكرني عذاب الله ..

التفت الزهري الى صاحبه وقال:

ـ أتصدّقني لو قلت لك لقد رأيته يخرج يديه وقدميه من القيود لكأنّها خيوط عنكبوت!!

فما مضت أربع ليال حتى عاد الجنود يبحثون عنه في المدينة فسألت أحدهم عمّا حصل فقال: فقدناه ولم نعثر له علىٰ أثر ووجدنا القيود والأغلال في مكانه.

هتف الرجل :

ـ أمرٌ عجيب .

ـ وأعجب منه هو اني لما قدمت بعد ذلك على عبد الملك وأخبرته بما رأيت قال: لقد جاءني يوم فقده الحرّاس فدخل علي وقال: ما أنا وأنت ؟

فقلت له : أقم عندي في الرحب والسعة.

فقال : لا أحب، ثم خرج، فوالله لقد امتلأ قلبي منه رعباً .

وحدّثني طاووس مـرّة قـال: رأيت رجـلاً يـصلّي في المسـجد الحرام تحت الميزاب يدعو ويبكي ، فجئته حين فرغ من الصلاة فاذا هو عليّ بن الحسين فقلت له: يابن رسول الله أتخاف ولك ثلاثة: أنت ابن رسول الله، وشفاعة جدّك ورحمـة الله؟ فقال: يـا طـاووس أمـا النسب فان الله تعالىٰ يقول: فلا أنساب بينهم يومئذٍ، وأما الشـفاعة فان الله تعالىٰ يقول : لا يشفعون إلّا لمن ارتضى . وأما رحمة الله فان الله عزوجل يقول : انها قريبة من المحسنين. ولا أعلم اني محسن.

وأردف الزهري وهو ينهض للصلاة :

ـ ولقد مضت عليه عشرون سنة وهو يبكي أباه ويقول :

انما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. والله ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين .

وتمرّ الساعات بطيئة، في ليلة تسمّرت النجوم في سمائها.

ولم تغمض عيون المدينة ... الريـاح البـاردة تجـوس الأزقّـة .. تعوي وهي تطرق الأبواب .. والنوافذ.

حتىٰ إذا طلع الفجر .. سكن كلّ شيء، وقـد انـطفأت النـجوم وانبعثت صرخة في قلب الغبش الرمادي.

لقد رحل علي بن الحسين؛ وعندها عرف الناس هوية الرجـل

الذي كان يجوس أزقّة المدينة في الليل ويهب الفقراء الفرحة والدفء والأمل.

ولما انثالت عليه المياه .. رأى الناس على ظهره مثل ركب الإبل .

سأل رجل مدهوشاً :

ـ ما هذا ؟

أجاب حفيد له :

ـ لقد كان يحمل على ظهره جراباً كلّ ليلة فيطوف منازل الفقراء .

بكىٰ الرجال بمرارة . لقد رحل السلام فالمدينة يلفّها برد وظلام.. وعامنا عام حزن.

كانت المدينة تبكي بصمت .. تبكي رحيل الأشياء الملوّنة . لم يبق منها سوىٰ طيوف تحلّق في سماء الذكريات .

وفي دمشق تقام الأفراح .. والوليد الملك السعيد يتلقىٰ أنباء بهيجة .. فمملكته تتوسع شرقاً وغرباً وكنوز المدن المقهورة تتدفق صوب دمشق؛ غير مكترث لما حل بانطاكية وقد دمّرتها الزلازل .

ولكن هل يتوقّف التاريخ عند هذه النهاية ؟!

ـ «كلا إذا دكّت الأرض دكاً دكا..

وجاء ربّك والملك صفاً صفا ..

وجيء يومئذٍ بجهنم

يومئذٍ يتذكر الإنسان، وأنّى له الذكرىٰ..

يقول: يا ليتني قدّمت لحياتي ..

فيومئذٍ لا يعذّب عذابه أحد ..

ولا يوثق وثاقه أحد ..

يا أيتها النفس المطمئنة ..

ارجعي الى ربك راضية مرضية ..

فادخلي في عبادي

وادخلي جنتي ..

كمال السيد ٣ ذو الحجة ١٤١٦هـ

الطَّبعَةُ الأُولَى
١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

دار النبلاء

بيروت ـ لبنان ـ حارة حريك: شارع القسيس خلف البلدية ـ تلفاكس : ٠١/٥٤١٩٣٠